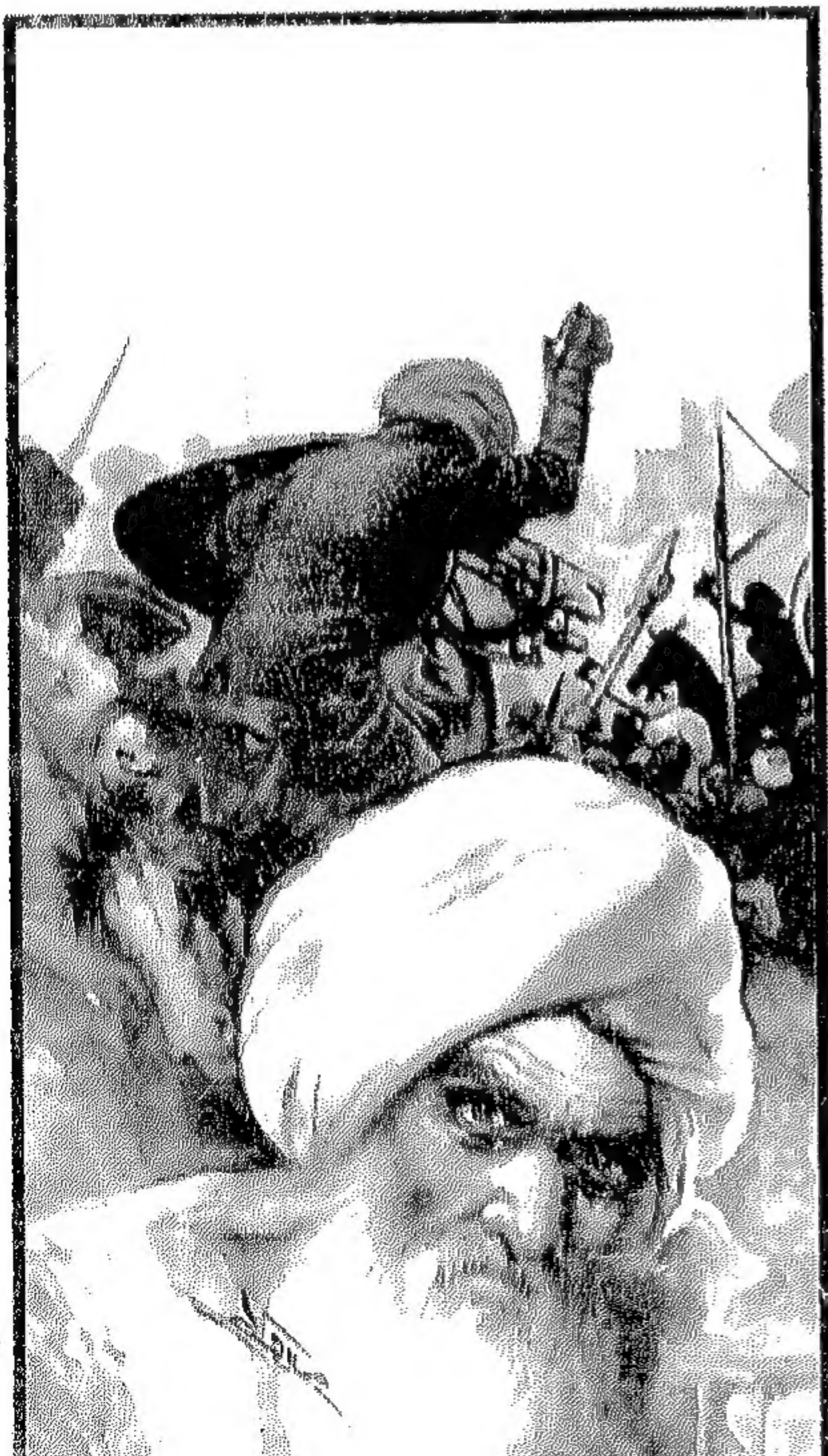


# مكتبة الأسرة

روائع التراث

## المختار من بدائع الزهور

لحمد بن أحمد بن إياس الحنفى



الهيئة  
المصرية  
للحفاظ  
على الكتاب





**المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور**



مهرجان القراءة للجميع ٩٦  
مكتبة الأسرة  
برعاية السيدة سوزان مبارك  
(روائع التراث)

المختار من	الجهات المشتركة:
بدائع الزهور فى وقائع الدهور	جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
محمد بن أحمد بن إياس الحنفى	وزارة الثقافة
لوحة الغلاف	وزارة الإعلام
للفنان جمال قطب	وزارة التعليم
تصميم الغلاف	وزارة الحكم المحلى
الإنجاز الطباعى والفنى	المجلس الأعلى للشباب والرياضة
محمود الهندى	التنفيذ: هيئة الكتاب
المشرف العام	
د. سمير سرحان	

**المختار من  
بدائع الزهور فى وقائع الدهور**

**محمد بن أحمد بن إياس الحنفى**



## بسم الله الرحمن الرحيم

هذه مختارات منتقاة بعناية من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس، وهى تتضمن يومياته، فى فترة تاريخية عاصرها بنفسه، وهى فترة الفتح العثمانى لمصر فى القرن السادس عشر الميلادى. وتتضمن المختارات أحداث ما يزيد قليلاً عن عام واحد (من المحرم عام ٩٢٢ هـ إلى ربيع الأول ٩٢٣ هـ) وهى الفترة التى وقعت فيها المعارك بين السلطان الغورى فى الشام مع السلطان سليم، ثم بين طومان باى فى مصر والغزاة.

وقد حرصت مكتبة الأسرة على عدم تعديل أى شئ فيما كتبه ذلك المؤرخ العظيم، وأن تحتفظ بأسلوبه الشائق الممتع الذى ينتفع فيه بالعامية المصرية الحية، وأن تضم مزيجاً من تصوير أحوال القاهرة ومصر فى تلك الأثناء وتصوير أحوال الحكام وصراعاتهم، بحيث تكون المختارات فى مجملها نموذجاً للحياة فى تلك الفترة الحافلة التى تبدأ بخبر اعتزام السلطان سليم الحرب وتنتهى باستيلائه على مصر وشنق طومان باى على باب زويلة.

والمختارات مقتبسة من الكتاب الكامل الذى أصدره مركز تحقيق التراث بهئية الكتاب، من تحقيق محمد مصطفى، عام ١٩٦١، ونرجو أن يشجع القارئ على الاستزادة من هذا التراث الخصب الحافل.

مكتبة الأسرة



## المحرم سنة ٩٢٢ هـ (١٩١٦م)

ولما كان مستهل الشهر يوم الاثنين جلس السلطان فى الميدان، وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة فهنّوا السلطان بالعام الجديد، ثم رجعوا إلى دورهم. - ثم فى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته الأمير كرتباى والى القاهرة وأشهبوا المناداة فى القاهرة بالأمان والاطمان والبيع والشرى، وأن أحدا من الناس لا يكثر كلاما، وأن أحدا لا يخرج من بعد العشاء ولا يمشى بسلاح ولا يتزايا بزي الممالك ولا يغطى وجهه فى الأسواق ومن فعل ذلك شُنق من غير معاودة، وأن لا أحد يحتمى على المحتسب. وقد تقدم القول فى الجزء التاسع على أن الممالك الجلبان أثاروا فتنة كبيرة حتى حنق منهم السلطان وتوجه إلى المقياس وأقام به ثلاثة أيام، فمشت الأمراء بينه وبين ممالكه بالصلح على أنه يعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة والأمير كرتباى من الولاية والزينى بركات بن موسى من الحسبة، ويبطل المشاهرة والمجامعة التى قرّرت على السوق أرباب البضائع، وتقدم القول بما كان سبب ذلك، فلما أن طلع السلطان إلى القلعة وبات بها، فلما أصبح نادى فى القاهرة بما تقدم ذكره ولم يفعل شيئا مما وقع الاتفاق عليه مع الممالك الجلبان، فشقّ عليهم هذه المناداة، وأشيع إثارة فتنة ثانية وكثر القال والقليل بين الناس، وكانت الناس قد استبشروا بأن السلطان ينادى بإبطال المشاهرة والمجامعة، فلما نادى كل شئ على حكمه نزل على الناس خدمة بسبب ذلك. - وفى يوم الثلاثاء ثانى الشهر جلس

السلطان فى الحوش وعرض أغاوات الطباقي، فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام وقال لهم: لا تسمعوا للمماليك القرانصة الذين يرمون بينى وبينكم الفتن وتشمتون العدو فينا وابن عثمان متحرك علينا ولا بد من خروج تجريدة عن قريب، حصلوا معكم ذهب ينفعكم إذا سافرتكم، والذي هو منكم متزوج يطلق زوجته، ما يبقى وراكم التفاتة إذا سافرتكم فى التجريدة. فلما سمعوا ذلك شق عليهم وقصدوا يثيرون فتنة فى ذلك اليوم، وتزايد الاضطراب ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة، وقد استوعدوا المماليك ابن موسى المحتسب بالقتل لأنه لما نزل فى ذلك اليوم نادى بأن كل شئ على حكمه، فتخلقت جماعته بالزعفران فى عمائمهم وشق من القاهرة، فتأكد المماليك الجلبان لذلك وقالوا: قد شمت فينا، وقال المماليك ولم يطلع من أيديهم شئ: وقد تخلق جماعته بالزعفران جكاره فينا والله ما نرجع حتى نقتله. وقد تقدم القول بأن المماليك قالوا للسلطان: سلمنا ابن موسى المحتسب نقتله بسبب غلو البضائع من كل شئ فى الأسواق.

وفى يوم الأحد سابعه توفى الشرفى يحيى بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان وكان شابا حسن الشكل ضخم الجسد، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة، وكانت جنازته حفلة. - وفى أثناء ذلك اليوم ركب الزينى بركات بن موسى وشق القاهرة، وقبض على جماعة من السوقه أرباب البضائع وضربهم ضربا مبرحا وأشهرهم فى القاهرة، وأشهر المناداة فى ذلك اليوم وسعر اللحم والدقيق والخبز والأجبان وسائر البضائع، وكل ذلك من خوفه من المماليك الجلبان.

وفى يوم السبت ثالث عشرة رسم السلطان بتوسيط  
خمسة أنفار من المنسر الذى شاع أمره فى القاهرة، وقد قبض  
عليهم شيخ العرب ابن أبى الشوارب، فرسم السلطان  
بتوسيطهم فى ذلك اليوم، وكان فيهم شخص يسمى أبو  
عزراييل وهو كبيرهم، فوسطهم أجمعين.. وفى هذا الشهر أو  
فى الشهر الذى قبله كانت وفاة الشيخ العارف بالله الولي  
المعتقد سيدى محمد بن عنان رحمة الله عليه، وكان من أعيان  
مشايخ الصوفية، وله شهرة بالصلاح والاعتقاد بين الناس..  
وفى يوم الخميس ثامن عشره كان دخول الأمير قايتباى أحد  
الأمراء الطليخاناه، وهو قريب زوجة الأتابكى قانم التاجر، على  
ابنة الأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين، فكان هذا  
العرس من الأعراس الحافلة، قيل اجتمع فيه من المغانى خمسة  
وعشرون ريسة، ومدوا فيه أسمطة حفلة من الأطعمة الفاخرة،  
وصنعوا فيه شموعا مزهرة ما بين قصور وشمامات، وكان من  
المهمات المشهورة.

ولما حضر الأمير علان أشيع أنه قبض فى مكة على  
شخص يقال له المعلم أحمد الشامى، وكان أصله من عتالين  
الزردخاناه، فوجدوا معه مالا يفتك فيه فى مكة، فلما بلغ أمره  
للأمير علان قبض عليه، وكان له رفيق فهرب من هناك، فلما  
دخل أحمد الشامى هذا إلى القاهرة أسفرت القضية على أن  
أحمد الشامى كان اتفق مع جماعة من معلمين دار الضرب  
التي كانت بالقلعة ونسرقوا من مال السلطان اثنى عشر ألف  
دينار، وغرمها السلطان للمعلم يعقوب اليهودى معلم دار





البساط قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة، ولم يدخل قدام السلطان غير سبعة أنفس والبقية لم يدخلوا، فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة، ثم قدموا كتاب ملك الحبشة، قيل إنه فى ضمن غلاف من الفضة وقيل من الذهب، فلما قرئ على السلطان وجد فيه ألفاظا حسنة ونعتا عظيما للسلطان، وأن قصادنا أتوا إلى مصر ليزوروا القيامة التى بالقدس فلا تمنعوه من ذلك. فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة، فرسم لهم السلطان بأن يقيموا فى ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع إلى أن يسافروا، وأرسل لهم خياما ضربت لهم من داخل الميدان، ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل إليهم من العوام، فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالى والمهمندار وجماعة من الرعوس النوب فوصلوهم إلى الميدان خوفا عليهم من العوام أن يرموهم، فكان لهم يوم مشهود.

وفيه نادى السلطان للعسكر بأن كل من كان له فرس أو أكثر فى الديوان يطلع يقبض ثمنه، ومن حين تحقق السلطان أن ابن عثمان زاحف على البلاد السلطانية وهو يأخذ بخواطير المماليك القرانصة ويرضيهم بكا ما يمكن، وأصرف لهم اللحوم التى كانت منكسرة، وأعطاهم ثمن الخيول التى كانت لهم فى الديوان. - وفيه أخرج السلطان خرجا من مماليكه الغورية ففرق عليهم فى ذلك اليوم زرديات وسيوفا وتراكيش وقسيًا ونشابا، وكانوا نحو ثلثمائة مملوك. -

وفيه أرسل السلطان إلى عبد الرزاق أخى على دولات، وإلى أولاد على دولات الكبار والصغار، ثمانية آلاف دينار، فقسمت بينهم، وأرسل يقول لهم اعملوا بهذه النفقة يرقمكم واخرجوا سافروا قبل خروج التجريدة فاجمعوا عساكركم من التركمان إلى أن أحضر أنا والعسكر. - وفيل أرسل السلطان مكاحل حديد ومدافع صوان إلى ثغر الإسكندرية وتمضى فى مراكب إلى هناك، فكانوا نحو مائتى مكحلة، وقد بلغه بأن ابن عثمان جهز عدة مراكب تجئ على السواحل للديار المصرية.

وفى يوم الخميس خامس عشرينه أظهر السلطان العدل وأشهر المناذاة عن لسان السلطان فى سواحل مصر العتيقة وبولاق بأن المكوس التى كانت تؤخذ على الغلال بطالة، وكانت مظلمة عظيمة من البدع المنكرة وهو أنه كان يؤخذ على كل أردب قمح أو شعير أو فول يباع أو يشتري نصف فضة، وكان الأشرف قايتباى أبطل ذلك، فلما تسلطت ابنه الناصر أعاد هذه المظلمه، فلما تسلطن الأشرف قانصوه الغورى تزايد الأمر حتى صار يؤخذ على كل أردب غلال ثلاثة أنصاف من البائع والمشتري وصار يسمى الموجب، ثم انتقلوا من الغلال إلى أن جعلوا على البطيخ مكسا أيضا، فاستمر ذلك مدة طويلة إلى أن ألهم الله تعالى السلطان إلى إبطال ذلك جميعه. -

وفى ذلك اليوم طرق السلطان أخبار رديّة بسبب ابن عثمان، فتنكد لذلك وخلا هو والأمراء يضربون مشورة فى أمر ابن عثمان. - وفى يوم الثلاثاء سلخ هذا الشهر أشهر السلطان

المناداة فى القاهرة للعسكر بالعرض يوم الخميس ثانى صفر،  
وأن لا يتأخر عن العرض أحد من العسكر من كبير ولا صغير،  
فاضطريت لذلك أحوال العسكر قاطبة.

## صفر ٩٢٢

وفى صفر كان مستهل الشهر يوم الأربعاء، فطلع الخليفة  
والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر، فقال السلطان للخليفة لما  
جلس: اعمل يرقك إلى السفر وكن على يقظة فإنى مسافر إلى  
حلب بسبب ابن عثمان. وقال للقضاة الأربعة مثل ذلك: اعملوا  
يرقكم وكونوا على يقظة حتى تخرجوا صحبتى. فقالوا:  
المرسوم مرسومك..

ومن الحوادث اللطيفة فى ذلك اليوم أن السلطان أمر  
بإبطال المشاهرة والمجاعة التى كانت على الحسبة، وأشهر  
المناداة فى مصر والقاهرة بذلك وأن مكس البحرين الذى كان  
يؤخذ على الغلال بطلال، فارتفعت له الأصوات بالدعاء بالنصر،  
وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان، ونقّطت الناس  
المشاعلية بالفضة الذين بشروا بذلك، وكان يوما مشهودا،

وكانت هذه المشاهير من أكبر أسباب الفساد فى حق  
المسلمين، فإن الوسائط السوء حسنوا للسلطان عبره بأن  
يجعل على السوق كل شهر مالا يردونه للمحتسب، فتزايد  
الأمر إلى أن صار مقرر على السوق فى كل شهر فوق الألفى  
دينار ترد للخزائن الشريفة، فكان الزينى بركات بن موسى

المحتسب يرد فى كل سنة للخزائن الشريفة من المشاهرة  
والمجامعة نحو ستة وسبعين ألف دينار من هذه الجهة وغيرها  
من الجهات التى متكلم عليها الزينى بركات بن موسى، وكان  
جماعة من الأمراء الذين بغير أقاطيع محقا له فى كل شهر على  
الزينى بركات بن موسى بما يتحصل من المشاهرة والمجامعة،  
فكانت السوقة تجور فى أسعار البضائع ولا يجسر من الناس  
أحد يكلمهم فيقولون: علينا مال السلطان نورده فى كل شهر.  
فاستمر ذلك من أول دولة السلطان إلى الآن، ألهم الله تعالى  
السلطان إلى إبطال ذلك. - وفيه وجد مملوك من ممالك  
السلطان مقتولا بباب الوزير، وكان ذلك المملوك من ممالك  
السلطان من جلبانه، وكان مسارعا، فلا يعلم من قتله، فتأكد  
الممالك بسببه. - وفى ذلك اليوم أخلع السلطان على القاضي  
بركات بن موسى وقرره ناظر الذخيرة الشريفة كما كان شمس  
الدين بن عوض، ولم يعد الزينى بركات بن موسى إلى الحسبة،  
فنزل من القلعة فى موكب حفل وصحبته الأمير طومان باى  
الدوادار وقدامه السعاة ماشية وشق من الصليبية، واستمرت  
الحسبة شاغرة إلى الآن لم يل بها أحد.

وفى يوم الجمعة عاشره صلى السلطان صلاة الصبح  
ونزل إلى الميدان، ثم خرج من باب الميدان الذى عند باب  
القرافة وتوجه من هناك إلى الروضة وعدى إلى المقياس وأقام  
به ذلك اليوم، وأشيع أن السلطان يتوجه من هناك إلى الفيوم  
ليكشف عن أمر الجسر الذى هناك انقلب من الماء، وقد توجه  
الأمير طومان باى الدوادار والأمير أرزمك الناشف إلى هناك



على أيديهما، فلما قُرئت على السلطان فإذا فيها أن شاه إسماعيل الصوفى ملك العراقين جمع من العساكر ما لا يحصى عددهم وهو زاحف على بلاد ابن عثمان، وكان فى سنة عشرين وتسعمائة حصل بينه وبين سليم شاه ابن عثمان ملك الروم وقعة مهولة، وانكسر منه شاه إسماعيل الصوفى، فاستمر الصوفى من حين جرى له ما جرى وهو فى جمع عساكر واستعان بملوك التتار، فقل إنه جمع الجم الغفير من العساكر فإن ابن عثمان كان قد قتل غالب عسكره فى الوقعة المقدم ذكرها، فلما راج أمر الصوفى وجمع العساكر قصد الزحف على بلاد ابن عثمان فقل إنه كبس على جماعة ابن عثمان الذين كانوا فى آمد وقد ملكها من يد الصوفى، فلما تحارب معه وانكسر الصوفى فجعل ابن عثمان فيها نائبا من قبله، فأشيع أن الصوفى كبس على من كان بآمد على حين غفلة وقتل من كان بها من العثمانية واستخلصها من يدى جماعة ابن عثمان وانتصر عليهم، فلما طرق السلطان هذا الخبر اجتمع بالأمراء فى الميدان وأقاموا فى ضرب مشورة بسبب ذلك إلى قريب الظهر، وقد أشيع بأن السلطان قال: أنا أخرج بنفسى وأقعد فى حلب حتى نرى ما يكون من أمر الصوفى وابن عثمان، فإن كل من انتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا، فانفض المجلس على أن لابد من خروج تجريدة تقيم بحلب ويحرسون البلاد، وأشيع فى ذلك اليوم بإحضار الكشاف ومشايخ العربان وألزمهم بأن يشرعوا فى تحصيل عشرين ألف خيال من العشير من فرسان العرب

ويوزعوا ذلك على سائر البلاد من الشرقية والغربية وجهات الصعيد، وهذا أكبر أسباب الفساد فى حق الجند والمقطعين فإن الكشاف ومشايخ العريان يأخذون فى هذه الحركة من البلاد المثل عشرة أمثال لأنفسهم، والأمر فى ذلك لله تعالى.

## ربيع الأول ٩٢٢

وفى ذلك اليوم توفى قاضى القضاة محيى الدين بن النقيب رحمة الله عليه، وهو محيى الدين عبد القادر بن على بن مصلح الشافعى، وكان يقرب للخوارج شمس الدين ابن قضا الجوهري، وكان من أهل العلم والفضل لكنه كان بجاقى النفس وينسب إلى شخ زائد، ولع فى ذلك الأمر أخبار شنيعة لم نذكرها هنا لكنها شائعة بين الناس، ومات وقد ناف عن السبعين سنة من العمر وقارب الثمانين، وكان سبب موته أنه كان كثير المشى فى الأسواق بقبقاب سحك، فتوجه إلى خان الخليلى فرفسه فرس فوقع على فخذه فانكسر فحملوه إلى خلوته التى بالمدرسة المنصورية فأقام أياما ومات، وكان منفصلاً عن القضاء، وقد ولى منصب القضاء ست مرات ونفذ منه فى هذه الست ولايات ستة وثلاثين ألف دينار، وكانت مدة إقامته فى هذه الست ولايات نحو سنتين، وكان قليل الحظ عند الناس قاطبة، وكان يسعى على القضاة المتولين ولا يزال عليهم حتى يعزلهم ويتولى منصب القضاء، فعزل به قاضى القضاة زين الدين زكريا وقاضى القضاة ابن أبى شريف وقاضى القضاة القلقشندي وقاضى القضاة كمال الدين

الطويل ويدر الذين المكينى وعلاى الدين بن النقيب، وكان يسعى عليهم بجملة مال ولا يقيم فى منصب القضاء غير أشهر ويعزل، فنفذ منه هذه الأموال الجزيلة ولم يمكث فى كل ولاية غير أشهر ويُعزل، وقد قلت فى ذلك مداعبة لطيفة:

منصب الحكم فى القضا قال لما      كشف الله ما به من هموم  
زال عنى ابن النقيب وإنى      كنت معه فى قبضة الترسيم

ويقال إنه كان متحصل ابن النقيب فى كل يوم من وظائفه نحو أشرفيين من خبز وجوامك، فكان يحرم نفسه من المأكّل والمشرب والملبوس ويحصل المال ويسعى به فى وظيفة القضاء ولا يمكث فيها إلا القليل.

وفى يوم الخميس رابع عشره ورد على السلطان مطالعة من عند سيباى نائب الشام وقد بلغه حركة سفر السلطان إلى البلاد الشامية فأرسل يقول له: يامولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن ما يوجد والزرع فى الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية فلم يلتفت السلطان إلى كلامه واستمر باقيا على حركة السفر إلى حلب- وفى ذلك اليوم أخلع السلطان على مملوكه الأمير ماماي الصغير وقرره فى نظر الجسبة الشريفة، عوضا عن الزينى بركات بن موسى بحكم انتقاله إلى أستاذارية الذخيرة، فكانت مدة إقامة الزينى بركات بن موسى فى الجسبة إحدى عشرة سنة إلا أشهر.

وعُزل والناس عنه راضية، وقيل إن الأمير ماماي الصغير سعى فى الحسبة بخمسة عشر ألف دينار حتى وليها، وكانت الحسبة والولاية فى قديم الزمان من أقل الوظائف ووليها جماعة كثيرة من أبناء الناس والفقهاء، ولكن عظم أمر هاتين الوظيفتين فى هذا الزمان إلى الغاية وصارتا من أجل الوظائف، وهذه الأموال العظيمة التى سعى بها هؤلاء ما يستخلصونها إلا من أضلاع المسلمين والأمر لله.

وفى يوم الأحد سابع عشره ظهر أحمد بن الصايغ الذى كان ضد الزينى بركات بن موسى فى الحسبة، وكان له مدة وهو مختلف فظهر فى ذلك اليوم وقابل السلطان، ثم خمد أمره ولم ينتج مع وجود الزينى بركات بن موسى.

وفى يوم الأربعاء ويوم الخميس نفق السلطان على العسكر بقية النفقة. - وفى يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة على العسكر قاطبة من قرانصة وجلبان ونادى لهم فى الحوش أن السفر أول الشهر، فاضطرب أحوال العسكر وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال، وصارت الممالك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق، ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء على السلطان، وغلقت أسواق القماش من الممالك واختفى الصنایعية والخياطون واضطربت أحوال القاهرة، واختفى جماعة من التجار خوفا من الممالك، واختفى طائفة

من الغلمان لأجل السفر، وصارت أحوال مصر مثل يوم  
القيامة كل واحد يقول: روحى روحى.

وقد أعاب العسكر على السلطان هذا الرهج الذى يقع  
منه، ولم يمش على طريقة الملوك السالفة عند خروجهم للسفر،  
ولم يكن أمر يستحق لهذا الرهج العظيم، ولا جاءت الأخبار بأن  
ابن عثمان قد وصل إلى حلب، ولا جاليشه، ولا تحرك من  
بلاده، وقد أعاب على السلطان أيضا عرضه لعسكر مصر  
قاطبة فى أربعة أيام ونفق عليهم مع العرض فخشوا أن يشاع  
هذا الخبر فى بلاد ابن عثمان وبلاد الصوفى أن السلطان قد  
عرض عساكره فى أربعة أيام فينسبونهم إلى قلة وأن ما تم  
بمصر عساكر، وربما يطمع العدو إذا سمع ذلك وما كان هذا  
عين الصواب وهذه الأحوال كلها غير صالحة.

### ربيع الآخر ٩٢٢ هـ

وفى يوم الأحد ثمانية فرّق السلطان على مماليكه الجلبان  
لبوس خيل حرير ملون وخوذ وأتراس وبذلات ما بين زنود  
وركب فولاذ وغير ذلك من آلة السلاح التى فى الزردخاناه،  
فتزاحمت عليه الممالك وصاروا يخطفون اللبوس الملاح  
بأيديهم، ولا يرضون بالذى يفرقه السلطان لهم فعجز عن  
رضاهم فى ذلك اليوم، وقد زاد تنمردهم فى هذه الأيام إلى  
الغاية. - أعجوبة: قيل إن فى يوم الاثنين ثالثه أحضر بين يدى  
السلطان امرأة ولدت مولوداً له رأسان فى حق واحد وله أربع  
أيدي وأربع أرجل، فلما شاهدها السلطان تعجب من ذلك، وقد  
وقع مثل ذلك فى زمن الإمام على رضى الله عنه.



من باب الميدان إلى رأس الصوة. ومنها أن السلاطين المتقدمة كانوا يخرجون إلى البلاد الشامية عندما تنقل الشمس إلى برج الحمل في أوائل فصل الربيع والوقت رطب، وأما الغورى فإنه سافر في قوة الحر والشمس في برج السرطان، فحصل للعسكر مشقة في الطريق. وأما من العادة القديمة أن السلاطين كانت تخرج من بين الترب عند خروجهم إلى البلاد الشامية ولا يشقون من القاهرة إلا عند عودهم، وكان السلطان الغورى لا يقتدى إلا برأى نفسه في جميع الأمور.

وفي يوم الخميس ثالث عشرة أشيع بين الناس أن شخصا من ممالك السلطان الجلبان يقال له جانم الإفرنجى، وكان مجرما عايقا مسرفا على نفسه، فبلغ السلطان أنه لما خرج صحبة الممالك السلطانية الذين تقدموا قبل خروج السلطان فصار جانم هذا يخطف كل شئ لاح له ويؤذى الناس بطول الطريق، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل مراسيم شريفة إلى أرباب الإدراك بأن يقبضوا عليه ويشنقوه حيث وجد، فقبل إنهم قبضوا عليه وشنقوه على شجرة في بلبس وهو بقماشه بسيفه وتركاشه، ووضعوا غلمانة في الحديد إلى أن أتوا بهم إلى المقشرة. - وفي يوم الجمعة رابع عشرة نزل السلطان من القلعة وتوجه إلى القرافة وزار قبر الإمام الشافعى والإمام الليث رضى الله عنهما، وكان صحبتته ولده أمير آخور كبير، وقيل تصدق في ذلك اليوم بمبلغ له جرم. - وفي ذلك اليوم برز سنيح السلطان وتوجه إلى الريدانية، وكذلك الأمراء خرج سنيحهم في ذلك اليوم.

فلما كان يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر خرج السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره قاصدا نحو البلاد الشامية والحلبية. وللناس مدة طويلة لم يروا سلطانا خرج إلى البلاد الشامية على هذا الوجه من حين.

ولما كان السلطان بالمخيم الشريف ورد عليه مطالعة من عند نائب حلب بأن ابن عثمان أرسل قاصدا إلى حلب، فعوقه نائب (حلب) عنده وأخذ منه كتاب ابن عثمان وأرسله إلى السلطان، فوصل إليه وهو بالمخيم بالريدانية، فلما فضّه السلطان وقرأه فإذا فيه عبارة حسنة وألفاظ رقيقة منها أنه أرسل يقول له: أنت والدى وأسألك الدعاء وإنى ما زحفت على بلاد على دولات إلا بإذنك وأنه كان باغيا على وهو الذى أثار الفتنة القديمة بين والدى والسلطان قايتباى حتى جرى بينهما ما جرى وهذا كان غاية الفساد فى مملكتكم وكان قتله عين الصواب، وأما ابن سوار الذى ولى مكانه فإن حسن ببالكم أن تبقيه على بلاد أبيه أو تولوا غيره فالأمر راجع إليكم فى ذلك، وأما التجار الذين يجلبون الممالك الجراكسة فإنى ما منعهم إنما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فامتنعوا من جلب الممالك إليكم، وإن البلاد الذى أخذتها من على دولات أعيدها لكم وجميع ما يرومه السلطان فعلناه. فلما سمع السلطان ذلك أحضر الأمراء المقدمين وقرأ عليهم كتاب ابن مان الذى حضر فانشرح السلطان والأمراء لهذا الخبر تبشروا بأمر الصلح والعود إلى الأوطان عن قريب، وكان كله حيلة وخداعا من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده





يخشباى كان مسافرا إلى جهة الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك، ثم نادى الأمير الدوادار فى القاهرة بأن الممالك السلطانية المتعينين إلى الشرقية والغربية يخرجون صحبة الأمراء الذين سافروا فلا يتأخر عن ذلك أحد من الممالك المعينة إلى السفر، فامتثلوا ذلك.

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه جاءت الأخبار من عند السلطان أنه لما رحل من الخانكاه وجد فى وطاقه شخص من الساسة زعموا أنه فداوى أرسله علم الدين جلبى السلطان الذى تغير خاطره عليه كما تقدم ذكر ذلك، فزعموا أعداء علم الدين أنه أرسل ذلك الفداوى ليقتل الصبى عبد الرازق الذى صار جلبى السلطان عوضا عن علم الدين، فقبضوا على ذلك الرجل الذى زعموا أنه فداوى وأحضروه بين يدي السلطان فقرره فأنكر فرسم بشنقه. ثم إن السلطان أرسل يقول للأمير الماس والى القاهرة بأن يكبس على علم الدين الجلبى وعلى أقاربه ويقبض عليهم ويشنق علم الدين على باب داره، فلما بلغ علم الدين الجلبى ذلك اختفى وهرب من داره، ثم إن الوالى قبض على جماعة من الساسة من أقارب علم الدين ووضعهم فى الحديد، فأشيع أنهم سجنوهم فى المقشرة إلى أن يحضر السلطان. وكان قبل ذلك حرق للسلطان والأمراء عدة شون دريس فى الحسينة بنحو ألفى دينار، فنسبوا أن ذلك من فعل جماعة من الساسة من أقارب علم الدين الجلبى، وإذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها، واستمر الطلب الحثيث على علم الدين الجلبى إلى أن يظفروا به، فقبل إن الوالى لما هرب علم الدين

أرسل ممالكة باللبس الكامل إلى ناي وطنان في طلب علم الدين فلم يظفروا به.

### جمادى الأولى ٩٢٢ هـ

ومن الحوادث في غيبة السلطان أن شخصا من ممالك السلطان الجلبان قصد يشتري قمحا من مركب على شاطئ البحر، فلما اشترى ذلك القمح لم يجد تراسا يحمله فوجد شخصا من الفلاحين الصعايدة ومعه حمار وزكبية، فأخذ ذلك المملوك الحمار والزكبية من ذلك الرجل فلم يعطه الرجل الحمار، فضربه ضربا مبرحا على رأسه حتى سال دمه، فألقى الرجل نفسه في البحر فأغمر عليه فمات، فعند ذلك تكاثرت الناس على ذلك المملوك ومسكوه وأتوا به إلى بيت الأمير الدوادار نائب الغيبة، فوضعه في الحديد وأرسله إلى الوالى ليسجنه إلى أن يحضر السلطان، فلما بلغ خشدأشينه ذلك أتوا إلى بيت الدوادار فوجدوه غائبا نحو جسر الفيض بسبب سده، فقبل للممالك إن ذلك المملوك الذى قتل قد سلمه الأمير الدوادار إلى الوالى، فعند ذلك نزل من الطباق الجم الغفير من الممالك الجلبان وتوجهوا إلى بيت الوالى وخلصوا ذلك المملوك الذى قتل الفلاح وقصدوا أن يحرقوا بين الوالى وينهبوه، فتغافل الأمير الدوادار عن أمر ذلك القتل وراحت على من راح.

ومن الحوادث في غيبة السلطان أن شخصا من الطواشية يقال له عنبر مقدم طبقة الأشرفية، وكان ساكنا بالقلعة في خرائب التتار، وكان متهما بالمال وعنده ودائع من





يخشى هناك، فكشف عليه وعاد بعد أيام وفي مدة غيبة السلطان كان الأمير الدوادار يركب كل يوم ومعه الأمراء والعسكر الذين بمصر فيسير إلى نحو المطرية وبركة الحاج، فإذا رجع يدخل من باب النصر وقدامه الجم الغفير من الأمراء والعسكر، وكل هذا لأجل العرب والفلاحين حتى لا يطمعوا ويقولوا إن ما بقى فى مصر عسكر، وكان هذا من الآراء الحسنة. وفيه تقلقت الناس بسبب الفلوس الجدد فصارت البضائع تباع بسعرين، ووصل صرف النصف الفضة بالفلوس إلى ستة عشر درهما من الفلوس، وكانت الفلوس الجدد تصرف معادة وهى فى غاية الخفة فتضرر الناس لذلك، فخلقت الدكاكين بسبب ذلك، وتشحط الخبز وسائر البضائع، وكادت أن تنتشى من ذلك غلوة.

## رجب ٩٢٢ هـ

وفيه وردت الأخبار بأن السلطان وصل إلى حلب فدخلها فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة، وكان لدخوله يوم مشهود، وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء، كموكبه بالشام، وحمل القبة والجلالة على رأسه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب كما فعل سيباى نائب الشام. وفى حال دخول السلطان إلى حلب وصل إليها قُصَاد من عند سليم شاه بن عثمان ملك الروم، ف قيل إن ابن عثمان أرسل إليه قاضى عسكره وهو شخص يقال له ركن الدين، وأحد أمرائه يقال له قراجا باشاه، وصحبته سبعمائة عليقة، فنزلوا بمدينة حلب. وبلغنى من الكتب الواردة بالأخبار أن السلطان لما حضر بين



قبل أن يحضر مغلباي دوادار سكين ويظهر له من أمر ابن عثمان ما يعتمد عليه، فلما وصل الأمير كرتبای عینتاب بلغه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح وأنه بهدل مغلباي ووضعته في الحديد وقصد شنقه حتى شفع فيه بعض وزرائه وقصد حلق لحيته وقد قاسى منه من البهدة ما لا يمكن شرحها، فلما تحقق الأمير كرتبای ذلك رجع إلى حلب وأعلم السلطان بما فعله سليم شاه بن عثمان، وأن طوالع عسكره قد وصل إلى عینتاب فهرب نائبها، وملك عسكر ابن عثمان قلعة ملطية وبهسنا وكركر وغير ذلك من القلاع، فلما وصل كرتبای بهذه الأخبار الردية إلى السلطان اضطربت أحواله وأحوال العسكر قاطبة.

ثم إن السلطان نادى للعسكر بالرحيل من حلب والنزول على حيلان لقتال الباغي ابن عثمان، وأن السلطان والأمراء عن قريب يخرجون إلى القتال، والذي يريده الله تعالى هو الذي يكون.

### شعبان ٩٢٢ هـ

وفي يوم السبت سادس عشر شعبان أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار، وماذاك أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرد من عند الأمير علان الدوادار الثاني أحد الأمراء المقدمين، فذكر فيه أن السلطان كان يكذب في أمر سليم شاه بن عثمان ويصدق إلى أن حضر مغلباي دوادار

سكين وهو فى حال النحس، بزمط أقرع على رأسه، وهو لابس  
كبر عتيق دنس، وراكب على إكديش هزيل، وقد نُهب بركه  
وأخذت خيوله وقماشه، وأخبر أن ابن عثمان أبى من الصلح  
وقال له: قل لأستاذك يلاقينى على مرج دابق، وأخبر أنه وضعه  
فى الحديد وقصد أن يحلق لحيته وقدمه إلى المشنقة عدة مرار  
حتى شفع فيه بعض وزرائه، وحمله الزبل من تحت خيله فى  
قفة على رأسه، وقاسى منه من البهدة ما لا خير فيه. فلما  
سمع السلطان ذلك تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان،  
فقلل إنه أنعم على مغلباي بألف دينار وخيول وقماش وبرك فى  
نظير ما ذهب له.

والذى استفاض بين الناس من أخبار السلطان أنه صلى  
الظهر وركب وخرج من ميدان حلب يوم الثلاثاء فى العشرين  
من رجب، وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة  
الأربعة، وكان تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من  
النواب، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط حتى  
رجت لهم حلب، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان  
فبات بها.. فلما أصبح يوم الأربعاء حادى عشرين رجب رحل  
السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق، فأقام به إلى يوم  
الأحد خامس عشرين رجب، وهو يوم نحس مستمر، فما يشعر  
إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان فصلى السلطان  
صلاة الصبح ثم ركب وتوجه إلى زغزغين وتل الفار، وقيل  
هناك مشهد نبي الله داود عليه السلام، فركب السلطان وهو  
بتخفيفه صغيرة وملوطة بيضاء وعلى كتفه طبر، وصار يرتب

العساكر بنفسه. فكان أمير المؤمنين عن يمينته وهو بتخليفة وملوطة، وعلى كتفه طبر مثل السلطان، وعلى رأسه الصنجق الخليفة. وكان حول السلطان أربعون مصحفاً في أكياس حرير أصفر على رءوس جماعة أشراف، وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان رضى الله عنه. وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم: خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام حمراء، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضراء، وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام خفيفة، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سوداء، وكان الصبى قاسم بك بن أحمد بك ابن عثمان المقدم ذكره واقفاً بإزاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أحمر. وكان الصنجق السلطانى واقفاً خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعاً، وتحت مقدم المماليك سنبل العثماني والسادة القضاة والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين، وكان يمينه العسكر سيباى نائب الشام، وعلى اليسرة خاير بك نائب حلب.

فقبل أول من برز إلى القتال الأتابكى سودون العجمي وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صنماجق، وأخذوا المكاحل التى على العجل ورماة البندق، فهم ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان، وكانت النصررة لعسكر مصر أولاً، وياليت لو تم ذلك، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال

لماليكه الجلبان: لا تقاتلوا شئ واخلوا الممالك القرانصة تقاتل  
وحدهم، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال، فبينما هم على  
ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة، وقُتل  
ملك الأمراء سيباى نائب الشام، فانهزم من في اليمين من  
العسكر. ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر  
الميسرة، وأسر الأمير قانصوه بن سلطان جركس وقيل قُتل،  
ويقال إن خاير بك نائب حلب كان موالسا على السلطان في  
الباطن، وهو مع ابن عثمان على السلطان، وقد ظهر مصداق  
ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة.

وكان ذلك خذلانا من الله تعالى لعسكر مصر حتى نفذ  
القضاء والقدر، فصار السلطان واقفا تحت الصنjq في نفر  
قليل من الممالك، فشرع يستغيث للعسكر: يا أغوات هذا وقت  
المروة قاتلوا وعلى رضاكم. فلم يسمع له أحد قولا وصاروا  
يتسحبون من حوله شيئا بعد شئ، فالتفت للفقراء والمشايخ  
الذين حوله وقال لهم: ادعوا إلى الله تعالى بالنصر فهذا وقت  
دعائكم، وصار ما يجد له من معين ولا ناصر، فأنطلق في قلبه  
جمرة نار لا تطفئ، وكان ذلك اليوم شديد الحر، وانعقد بين  
العسكرين غبار حتى صار لا يرى بعضهم بعضا، وكان نهار  
غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر وغُلت أيديهم  
عن القتال، وقد قلت في هذه الواقعة:

في مرج دابق قال: هل من مسعف  
عرضت نفسك للبلا فاستهدف

لما التقى الجيشان مع سلطاننا  
فله أجاب لسان حال قائلا

واشتد بالجلبان رعب قلوبهم      وغدوا يقولوا أى أرض نختفى  
والنهب أطمعهم لذل نفوسهم      حتى أتاهم بالقضاء المتلف

فلما اضطربت الأحوال، وتزايدت الأهوال، فخاف الأمير  
تمر الزردكاش على الصنjq فأنزله وطواه وأخفاه، ثم تقدم  
إلى السلطان وقال له: يامولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان  
قد أدركنا فانج بنفسك واهرب إلى حلب. فلما تحقق السلطان  
ذلك نزل عليه فى الحال خلط فالج أبطل شقيقته وأرxy حنكه،  
فطلب ماء فأتوه بماء فى طاسة ذهب، فشرب منه قليلا وألفت  
فرسه على أنه يهرب، فمشى خطوتين وانقلب من على الفرس  
إلى الأرض، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة  
قهرة، وقيل فقعت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر وقيل إنه لما  
رأى الكسرة عليه ابتلع فص ماس كان معه، فلما نزل جوفه  
غاب عن الوجود وسقط عن فرسه ومات من وقته، على ما قيل  
من هذه الإشاعة. فلما أشيع بموته زحف عسكر ابن عثمان  
على من كان حول السلطان، فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين  
قريب السلطان، والأمير أقبای الطويل أمير أخور ثانى أحد  
المقدمين، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان  
ممن كان حوله.

وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر، ولا وقف له  
أحد على أثر، ولا ظهرت جثته بين القتلاء، فكأن الأرض قد  
انشقت وابتلعتة فى الحال، وفى ذلك عبرة لمن اعتبر، فداستوا  
العثمانية المصاحف التى كانت حول السلطان بأرجل الخيول،

وفُقد المصحف العثماني وأعلام الفقراء وصناجق الأمراء،  
ووقع النهب في عسكر مصر، وزال مُلك الأشرف الغوري على  
لمح البصر فكأنه لم يكن، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير،  
بعد ما تصرف في مُلك مصر وأعمالها والبلاد الشامية  
والحلبية وأعمالها، فكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة  
وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما، فإنه ولي ملك مصر في  
مستهل شوال سنة ست وتسعمائة، وتوفي في الخامس  
والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، فكانت  
الناس معه في هذه المدة في غاية الضنك، وقد قلت في المعنى:

اعجبوا للأشرف الغوري الذي      مذ تزايد ظُلمه في القاهره  
زال عنه مُلكه في ساعة      خسر الدنيا إذا والآخرة

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر،  
وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى، فقُتل في تلك الساعة  
من عسكر ابن عثمان ومن عسكر مصر ما لا يحصى عدده،  
فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة وهم: الأتابكي سودون العجمي  
وبيبرس قريب السلطان وأقباي الطويل، وأسر قانصوه بن  
سلطان جركس وقتل سيباي نائب الشام وتمراز نائب طرابلس  
وطراباي نائب صفد وأصلان نائب حمص، وغير ذلك جماعة  
كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس، وقتل من أمراء  
مصر جماعة كثيرة من أمراء طبلخانات وعشرات وخاصكية،  
وأكثر من قتل من عسكر مصر الممالك القرانصة، ولم يقتل من  
الممالك الجلبان إلا القليل، فإنهم لم يقاتلوا في هذه الواقعة

شيئا، ولا ظهر لهم فروسية فكأنهم خشب مسندة، وقتل من  
عسكر ابن عثمان مالا يحصى ضبطه. وقتل من أمراء مصر  
ومات تحت صنjqه فى يوم الحرب، وانكسر على هذا الوجه  
أبدأ، ولا سمع بمثل ذلك، ونهب ماله وبركه بيد عدوه، غير  
قأنصوه الغورى، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا. وكان  
السلطان والأمراء ما منهم أحد ينظر فى مصالح المسلمين  
بعين العدل والإنصاف، فردت عليه أعمالهم ونياتهم وسلط الله  
تعالى عليهم ابن عثمان حتى جرى لهم ماجرى، فكان كما قيل  
فى المعنى:

أين الملوك الذى فى الأرض قد ظلموا      والله منهم لقد أخلى أماكنهم  
فاستغن بالسمع عن مراءهم عظة      فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم

ثم إن ابن عثمان تحول عن مرج دابق ودخل إلى حلب  
فملكها من غير مانع، فنزل بالميدان الذى بها فى مكان كان به  
السلطان، وهذا ما انتهى إلينا من ملخص هذه الواقعة مع ما  
فيها من زيادة ومن نقصان، فهذا ما كان من أمر السلطان  
وابن عثمان. وأما ما كان من أمر الأمراء والعسكر بعد الكسرة  
فإنهم توجهوا إلى حلب وأرادوا الدخول بها، فوثب عليهم أهل  
حلب قاطبة وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم  
وخيولهم وبركهم وودائعهم التى كانت بحلب، وجرى عليهم من  
أهل حلب مالا جرى عليهم من عسكر ابن عثمان، وكان أهل  
حلب بينهم وبين الممالك السلطانية حظ نفس من حين توجهوا

قبل ذلك صحبة قانى باى أمير آخور كبير، فنزلوا فى بيوت  
أهل حلب غصبا وفسقوا فى نسائهم وأولادهم وحصل منهم  
غاية الضرر لأهل حلب، فما صدقوا أهل حلب بهذه الكسرة  
التي وقعت لهم فأخذوا بثأرهم منهم. فلما رأوا الأمراء وبقية  
العسكر ذلك خرجوا من حلب على حمية وتوجهوا إلى دمشق،  
فدخلوها وهم فى أنحس حال لا برك ولا قماش ولا خيول،  
ودخل غالب العسكر إلى الشام بعضهم راكب على حمار  
وبعضهم راكب على جمل، وبعضهم عربان وعليه عباءة أو  
بشت، ولم يقع لعسكر مصر كايئة قط أعظم من هذه الكايئة،  
فأقام الأمراء والمباشرون والعسكر فى الشام حتى يتكاملوا  
البقية ويظهر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميرا. وقتل فى  
ذلك اليوم القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصري،  
وجماعة كثيرة من الجند يأتى الكلام على ذلك فى موضعه،  
فكانت ساعة يشيب منها الوليد، ويذوب لسطوتها الحديد،  
فصار فى مرج دابق جثث مرمية وأبدان بلا رؤوس ووجوه  
معفرة فى التراب قد تغيرت محاسنها، وصار فى ذلك المكان  
خيول مرمية موتى بسروج مغرق وسيوف مسقطة بذهب  
وبركستوانات فولاذ وخوذ وزرديات ويقج قماش فلم يلتفت  
إليها أحد، وكل من العسكرين اشتغل بما هو أهم من ذلك،  
وقال بعض المواليا فى المعنى:

عودى فغنت صوارم شرقها والغرب  
روس الأعادى وترقص داخله فى الضرب

نق جوادى وقد جسيّت يوم الحرب  
ت عادت تمقط فى سماع الحرب



الثلاثة وهم: قاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى وأما قاضى القضاة الحنفى محمود بن الشحنة فإنه هرب العسكر وتوجه إلى الشام، ونهب جميع بركه وقماشه، ود. إلى الشام فى أنحس حال. - وقيل لما دخل أمير المؤمنين - ابن عثمان وهو بالميدان قام له وعظمه وأجله وجلس بين ي فاشيع أنه قال له: أصلكم من أين، قال له: من بغداد، فقال ابن عثمان: نعيدكم إلى بغداد كما كنتم، والأقوال فى كثيرة. فلما أراد الخليفة الانصراف أخلع عليه دُلامه حرير ملابيسه، وأنعم عليه بمال له صورة وردة إلى حلب ووكل به لا يهرب من حلب وقيل لما دخل عليه قضاة القضاة وبذ بالكلام وقال لهم: إئتوا تأخذوا الرشوة على الأحكام الشر وتسعوا بالمال حتى تتولوا القضاء، ليش ماكنتمو تمن سلطانكم عن المظالم التى كان يفعلها بالناس. وأشاعوا هذه أخبار العجايب والغرائب، والمعول فى ذلك على الصحة

وأخبرنى من رأى سليم شاه بن عثمان أنه مريوع القا واسع الصدر، أقنص العنق، مكرفس الأكتاف، فى ظهره ج مترك الوجه، واسع العينين، ذرية اللون، وافر الأنف، ه الجسد، حليق اللحية ليس غير الشوارب، كبير الرأس، عما صغيرة دون عمايم أمرائه. فلما ملك حلب سلموه أهلها الما بالأمان وهرب قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب وتوجه الشام مع العسكر وترك أبواب قلعة حلب مفتحة، فلما بلغ عثمان ذلك أرسل إليها شخصا من جماعته، وهو أعرج أج وفى يده دبوس خشب. فطلع إلى قلعة حلب فلم يجد بها م

يرده، فختتم على الحواصل التي بها واحتوى على ما فيها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك. وقد فعل ابن عثمان أباحة أنه أخذ قلعة حلب بما فيها بشخص أعرج وفي يده دبوس خشب وهو أضعف من في عسكره، وقيل في المعنى:

لا تحقرنَّ ضعيفاً في مخاصمةٍ      إن الذبابة تدمى مسقلة الأسد

وأشيع أن ابن عثمان من حين استولى على حلب لم يدخل مدينتها غير ثلاث مرات المرة الأولى دخلها وطلع إلى القلعة بسبب عرض حواصلها، فلما عرضها رأى ما أدهشه من مال وسلاح وتحف، فاحتوى على ما كان من المال نحو مائة ألف ألف دينار، والكنابيش الزركش وأرقاب الزركش والقبعة والطير والسروج الذهب والبلور والطبول بازات المينة واللجم المرصعة بالفصوص المثمنة والبركستوانات الفولاذ والمخمل الملون والسيوف المسقطة بالذهب والزرديات والخوذ الفاخرة وغير ذلك من السلاح، فرأى ما لا قط رآه ولا فرح به أحد من أجداده ولا أحد من ملوك الروم، والذي جمعه الغوري من الأموال من وجوه المظالم والتحف التي أخرجها الغوري من الخزائن من ذخائر الملوك السالفة من عهد ملوك بني أيوب الأكراد وغيرها ومن ملوك الترك والجرأكسة، احتوى عليها سليم شاه بن عثمان من غير تعب ولا شقى، هذا خارجاً عن ما كان للأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعششرات والمباشرين والعسكر قاطبة من الودائع بحلب من مال وسلاح وقماش وبرك، فاحتوى ابن عثمان على ذلك جميعه. وقيل إنه

ملك ثلاث عشرة قلعة من معاملة بلاد السلطان، واحتوى على ما فيها من مال وسلاح وغير ذلك من التحف. فكان الذى ظفر به سليم شاه بن عثمان فى هذه السنة من الأموال والسلاح ما لا ينحصر ولا يضبط، واحتوى على خيول وبغال وجمال ما لا يحصى عددهم، واحتوى على خيام وبرك، ولا سيما ما كان مع السلطان والأمراء والعسكر، وقد قُسم له ذلك من القدم، كما يقال فى المعنى:

ألا إنما الأقسام تحرم ساهرا      وأخر يأتى رزقه وهو نائم

ودخل المرة الثانية فصلى صلاة الجمعة فى جامع الأطروش الذى بحلب، وخطب باسمه ودعى له على المنابر فى مدينة حلب وأعمالها، ولما صلى بها صلاة الجمعة زينت له مدينة حلب ووقد له الشموع على الدكاكين وارتفعت له الأصوات بالدعاء، والتف عليه الخواجا إبراهيم السمرقندى والخواجا يونس العادلى والعجمى الشنقشى، وكانوا هؤلاء من أخصاء الغورى، وكانوا مع ابن عثمان فى الباطن ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار المملكة، فلما فقد السلطان أظهروا عين المحبة لابن عثمان، وصاروا يحطون على الغورى ويذكرون أفعاله الشنيعة إلى ابن عثمان، وصاروا من جماعته ونسيوا إحسان الغورى لهم، كما يقال فى المعنى:

لقاء أكثر من يلقيك أوزار	فلا تبال أصدوا عنك أو زاروا
أخلاقهم حين تبلوهم أو عار	وفعلهم منكر للمرء أو عار
لهم لديك إذ جاءوك أوطار	إذا قضوها تنصوا عنك أو طاروا

وممن كان موالسا على السلطان فى الباطن وهو خاير بك نائب حلب، فإنه أول من كسر عسكر السلطان هو، وهرب عن ميسرة السلطان حتى انكسر فتوجه إلى حماة، فلما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه وأخلع عليه وصار من جملة أمرائه، ولبس زى التراكمة العمامة المدورة والدلامة، وقصص ذقنه، وسماه ابن عثمان خاين بك، كون أنه خان سلطانه وأطاع ابن عثمان فسماه بذلك، فلما جرى ذلك تسحبت ممالك خاير بك نائب حلب وتوجهوا صحبة العسكر إلى مصر، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان. وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المستعصم بالله وملك هلاكو، ملك التتار مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم فصار ابن العلقمى من المقربين عند هلاكو، ثم أقلب عليه وقتله وصلبه وقال له: أنت ماكان فى وجهك خير لأستاذك يكون فى وجهك خير لى، وربما يقع لخاير بك نائب حلب مثل ذلك.

ومن هنا نرجع إلى أخبار القاهرة بعد هذه الحركة، فإن لما ورد كتاب الأمير علان الدوادار الثانى بما وقع من أمر هذه الواقعة وقتل الأمراء، فقام العزاء والصراخ فى بيت الأتابكى سودون العجمى وكان أميرا دينا خيرا لين الجانب، وكان يعرف بسودون من جانبى بك، وأصله من ممالك الأشرف قايتباى وولى عدة وظائف سنية، منها أمرية مجلس وأمرية السلاح والأتابكية، وأظهر الفروسية فى هذه الواقعة، واستمر يقاتل حتى قتل من على ظهر فرسه رحمة الله عليه. فقام نعى

السلطان فى ذلك اليوم، ونعى الأمراء الذين قتلوا فى هذه الواقعة، وصار فى كل حارة نعى بسبب من قتل من العسكر، ورجت القاهرة فى ذلك اليوم وكثر الاضطراب والقال والقليل بالقاهرة.

وفى يوم الأحد سابع عشر شعبان وردت الأخبار على الأمير الدوادار بأن عربان بنى عطية والنعائم نهبوا ضياع الشرقية، وأخذوا منها نحو أربعمائة رأس من الغنم منها للسلطان والدوادار، ودخلوا وادى العباسية، فلما بلغ الأمير الدوادار ذلك صلى الظهر ثم ركب وخرج إليهم وصحبته خمسمائة مملوك وكبس عليهم، فهربوا من وجهه وغنموا ما نهبوه من الأموال والمواشى والغلال وغير ذلك، فرجع الأمير الدوادار إلى داره. - وفيه أخلع الأمير الدوادار على الزينى بركات بن موسى وشق القاهرة، وأشهر النداء بالأمان والأطمأن وأن المشاهرة والجامعة بطالة وجميع المظالم الحادثة بطالة، وأن الزينى بركات بن موسى على عادته ولا يحتزم أحد عليه، وقد تضاعفت حرمة وتنافذت كلمته فوق ما كان واجتمع معه عدة وظائف سنية، وصار هو المتصرف فى جميع أمور المملكة ليس على يده يد. - وفى يوم الاثنين ثامن عشرة نفق الأمير الدوادار الجامكية على العسكر الذى بالقاهرة، فجلس الأمير طقطبى نائب القلعة عند سلم المدرج ونفق الجامكية هناك، والإشاعات قائمة بموت السلطان والأحوال مضطربة.





وأخذوا أموالهم وجمالهم، والذي سلم عروه، وجرى على  
العسكر من العربان ما لا جرى عليهم من عسكر ابن عثمان،  
ووقع لهم ذلك بين قطيا والصالحية عندما وصلوا إلى الأمان.

رمضان ٩٢٢ هـ

وفيه دخل قاضى القضاة الحنفى محمود بن الشحنة  
وقد نهب جميع بركة وكل ما يملكه، وأخبر أن ابن عثمان ملك  
ثلاث عشرة قلعة وخطب باسمه فيها، ومشى حكمه من الفرات  
إلى حلب، وأخبر أن الخليفة والقضاة الثلاثة فى الأسر عند  
ابن عثمان بحلب، ولولا هرب محمود مع العسكر وإلا كان أسر  
معهم، وأخبر أن إبراهيم السمرقندى ويونس العادلى والعجمى  
الشنقشى الذين كانوا من أخصاء السلطان الغورى، فلما مات  
التفوا على سليم شاه بن عثمان، وصاروا من جماعته وصاروا  
يتقربون إلى ابن عثمان بمرافعة جماعة الغورى، ولم يتذكروا  
شيئا من إحسان الغورى لهم، ولا سيما ما أحسنه الغورى إلى  
العجمى الشنقشى من سلاريات وشق وسمور ومال وإنعامات  
جزيلة فلم يثمر معهم إحسانه لهم، فلما بلغ الأمير الدوادار  
ذلك رسم للوالى بأن يكبس على بيت السمرقندى ويونس  
العادلى، فتوجه الوالى إليهم وقبض على عيال السمرقندى  
ويونس العادلى وحریمهم وحاشيتهم، ووضع عبد السمرقندى  
فى الحديد، وختم على حواصل السمرقندى ويونس العادلى،  
وظهر أنهم كانوا موالسين على السلطان، وكانوا يكاتبون سليم  
شاه ابن عثمان فى الباطن بأحوال السلطان وأمور المملكة،  
وصاحب البيت أدرى بالذى فيه.



بقانصوة من ببيردى الغورى. واستمر يرتع فى ملك مصر على ما ذكرناه من التنعم والرفاهية، وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة والأمراء والنواب والعسكر فى قبضة يده لم يختلف عليه اثنان، إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم فخرج إليه، وجرى له هذه الكاينة العظمى التى لم تقع قط لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا.

وكان للغورى محاسن ومساوى لكن مساوئه أكثر من محاسنه، فأما ما عُدَّ من محاسنه فإنه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب وليس له بادرة بحدّة عند قوة خلقه، ومنها أنه كان له الاعتقاد الزائد فى الصالحين والفقراء، ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم، ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس فى شدة غضبه ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء وله نظم على اللغة التركية، وكان مغرما بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار، وكان قريبا من الناس يحب المرح والمجون فى مجلسه غير كثيف الطبع فى ذاته، وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك فى أفعالهم.

وأما ما عُدَّ من مساوئه فإنها كثيرة لا تحصى، منها أنه أحدث فى أيام دولته من أنواع المظالم ما لا حدثت فى سائر الدول من قبله، ومنها أن معاملته فى الذهب والفضة والفلوس



العربان على بلاد المقطعين والأوقاف، فيأخذ كل منهم المثل أمثال، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد. وكذلك كان يولّى النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والحلبية، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة بقدر معلوم، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف، فكان كل أحد منهم يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى أفردته عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة، فما حصل على أهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير.

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة وآل أمره إلى الخراب، وعزّ وجود الشاشات من مصر والأزر والأنطاع، وأخرب البندر. وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم، وعزّ وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج. وكان كل أحد من الأراذل يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم، فقرر على بيع الغلال قدرا معلوما يؤخذ على كل أردب، وهى ثلاثة أنصاف من البائع والمشتري، وكذلك على البطيخ والرمان، حتى جرّج على بيع الملح. وجدّد فى أيامه عدة مكوس من هذا النمط مالا فعله هناء فى زمانه. ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره وأخذ أمواله، ولا سيما ما جرى على الشيرازى والحلبى التاجر وغيره من التجار. وصادر حتى أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب وأخذ منه

مالا له صورة، ودخل فى جملة ديون حتى أورد ما قررّ عليه. وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال، منهم القاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السر كان، ومنهم شمس الدين بن عوض، ومعين الدين بن شمس، وعلم الدين كاتب الخزانة، وغير ذلك جماعة كثيرة من المباشرين والعمال، ماتوا فى سجنه بسبب المال والمصادرات.

ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ورزقهم من غير سبب، وأعطى ذلك إلى مماليكه الجلبان. ومنها قطع نجوامك الأيتام من الرجال والنساء والصغار، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك. ومنها أنه أرسل فكّ رخام قاعة ناظر الخاص يوسف التى تسمى نصف الدنيا، فوضع ذلك الرخام فى قاعة البيسرية التى بالقلعة. ومنها أنه قطع المعتدات التى كانت تسامح بها الناس من الديوان المفرد من تقادم السنين، وجدّد أخذ حمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتُزرع الأراضى، فكانت المقطعون تقاسى من البهدة مالا خير فيه. ثم تزايد شحّه حتى صار يحاسب السواقين الذين فى سواقى القلعة، والخولة الذين فى سواقى الميدان، بجلّة روث الأبقار وما يتحصل من ذلك فى كل يوم، وقرر عليهم بيعها بمبلغ يردونه للذخيرة. وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه فى غاية الضنك لا يغفل عنهم من المصادرات ساعة واحدة، وصادر تى المغانى النساء من الرؤساء. وكان من حين توفى الأمير برك الخازندار يباشر أمر ضبط الخزانة بنفسه، ما يدخل









الأصوات بالدعاء، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته، وكان محبوباً للعوام فإنه كان لين الجانب قليل الأذى غير متكبر ولا متحبر. فلما انتهى أمر المبايعة أخلع السلطان على أمير المؤمنين يعقوب ونزل إلى داره في موكب حافل. وزالت دولة الغوري كأنها لم تكن، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير على طول المدى.

ويوم الأحد سلخ هذا الشهر حضر الناصري محمد بن يلباي المؤيدي حاجب ميسرة بدمشق، وأخبر أن سليم شاه بن عثمان قد ملك مدينة دمشق، وملك قلعتها وقتل على باي الأشرفي نائب القلعة، وقتل ستة وثلاثين أميراً من أمراء دمشق غير من وجده من الرعية بالشام، وحضر ابن يلباي هذا وهو في زى العرب ببشت وزمط على رأسه. فلما أشيعت هذه الأخبار في القاهرة بأن ابن عثمان ملك الشام صارت الناس في أمر مريب بسبب ذلك قالوا: ما بقي بعد أخذ الشام إلا مصر، وجزموا بهذا الأمر وعول بعض الناس من أهل مصر على الهروب إلى جهة الصعيد فتأكد السلطان والأمراء والناس قاطبة لهذا الخبر، ولا سيما كانت ليلة عيد الفطر والناس جرحهم طرى بسبب موت السلطان وكسرة العسكر، والأنعة قائمة بسبب من قتل من العسكر.

شوال ٩٢٢ هـ

وفي يوم الاثنين ثامنه حضر دوا دار نائب غزة المسمى بعلی باي الأحذب، وأخبر بأن ابن عثمان من حين دخل إلى



فأرسل السلطان يقول للشيخ سعود: مهما اقتضاه رأيك فيه افعله. فلما ردّ الجواب على الشيخ بذلك فأمر الشيخ بإشهار ابن موسى في القاهرة ثم يشنقونه على باب زويلة، فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التي في كوم الجارح وهو ماش مكشوف الرأس بكبرطاق وهو في الحديد وينادي عليه: هذا جزاء من يؤذي المسلمين. فتوجهوا به من كوم الجارح إلى ساحل البحر من مصر العتيقة وهم ينادون عليه إلى أن وصل إلى بيت الأمير علان الدوادر الذي بالناصرية، فأراد أن يوقع فيه فعل بشنق أو تغريق، ثم عاودوا الشيخ في أمره، بأن عليه مالاً للسلطان ومتى شنق ضاع على السلطان ماله، فعفى الشيخ عنه من القتل، واستمر ابن موسى عند الأمير علان وهو في الحديد حتى يكن من أمره ما يكون، وكانت واقعة مهولة بين ابن موسى والشيخ سعود، وقد أشرف ابن موسى في هذه الكاينة على الهلاك وذهاب الروح.

ولما جرى لابن موسى ما جرى ظهر غريمه شهاب الدين بن الصايغ وكان يسمى عليه في أيام الغوري، فلما وقعت هذه الكاينة لابن موسى انتدب إلى مرافحته ابن الصايغ وقال: أنا أثبت في جهة ابن موسى للسلطان مائة ألف دينار. ثم إن ابن الصايغ توجه إلى بيت ابن موسى وصحبته طواشية وقواسة وجماعة كثيرة، وكبس على نساء ابن موسى الاثنتين وقبض عليهن ونهب ما في بيوتهن من قماش وأمتعة، وقبض على عبيده وغلمان وحاشيته، فلما رأى السلطان قد حلّ في أمره توقّف عن ما كان فيه من أذى ابن موسى، ثم إن ابن موسى

قال: أنا أثبت في جهة ابن الصياغ مائتي ألف دينار. وقال للأمير علان: ارسل خلف ابن الصايغ واودعه في الحديد حتى يعمل حسابه، فلما حضر ابن الصايغ ووضعه الأمير علان في الحديد حتى يقيم حسابه مع ابن موسى. وأما ما كان من أمر الشيخ سعود فإنه لما فعل بابن موسى ما فعل قامت عليه الدائرة والأشلة وأنكروا عليه الناس والفقراء وقالوا: إيش للمشايخ شغل في أمور السلطنة، واشتغلت الناس به ولم يشكره أحد على ما فعله بابن موسى.

.. وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه نادى السلطان للعسكر بأن يوم الثلاثاء أول النفقة - وفيه وردت الأخبار من الهند بأن المراكب التي كان أرسلها السلطان الغوري قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك، وأن قد وقع بين الرئيس سلمان العثماني وبين الأمير حسين نائب جدة. وأن كلا منهما توجه إلى جهة من جهات الهند ولم يعلم له خبر. -

- وفيه أرسل السلطان قبض على جماعة من الأروام الذين في خان الخليلى، وقد بلغه عنهم أنهم يكاتبون ابن عثمان بما يقع في مصر من أمور المملكة وعندهم جواسيس لابن عثمان، فأرسل قبض عليهم ووضعهم في الحديد.

ذو القعدة ٩٢٢ هـ

وفي يوم الأربعاء تاسعة حضر دوا دار خاير بك نائب حلب وزعم أنه قد فر من ابن عثمان، فأخبر أن ابن عثمان

أرسل عسكريا نحو خمسة آلاف فارس صحبة ابن سوار وقد أشرفوا على أخذ مدينة غزة، بل أشاعوا أخذها، وأن نائب غزة قد هرب. فاضطربت الأحوال لهذه الأخبار وتنكد السلطان إلى الغاية، ونادى فى ذلك اليوم بأن العسكر المعين للسفر ممن أخذ النفقة يخرجون فى ذلك اليوم من غير تأخير، ومن تأخر لا يسأل ما يجرى عليه. فلما كان يوم الخميس عاشرة خرج العسكر على وجوههم مسرعين، وأشيع سفر السلطان بنفسه وأنه هو الذى يلاقى ابن عثمان، وصحبته الأمراء قاطبة وسائر العسكر. وحضر صحبة دوا دار نائب حلب أمير كبير غزة وهو فى الحديد، وجماعة من أجناد الحلقة بغزة وهم فى الحديد، وأرسل نائب غزة يرافع فيهم بأنهم كاتبوا ابن عثمان بأن يحضر إلى غزة ويملكها من غير مانع. فلما حضروا بنى يدى السلطان حلفوا له أن هذا الأمر ما وقع منهم ولا كاتبوا ابن عثمان وإنما دولات باى نائب غزة بينه وبين أجناد غزة حظ نفس، فكذب عليهم بهذه التهمة الباطلة، فصدقهم السلطان على ذلك، وأرسل جان بردى الغزالى نائب الشام يشفع فيهم ويبرؤهم مما قالوه فى حقهم بالباطل، ففكهم السلطان من الحديد وأرسلهم إلى نقيب الجيش حتى يتبصر فى أمرهم. وفى يوم الخميس المقدم ذكره أطلع السلطان على الأم يوسف البدى الذى كان وزيرا وقرره ناظر الذخيرة الشر ووكيل بيت المال، عوضا عن الزينى بركات بن موسى بد انفصاله عنها.

وفى يوم السبت ثانى عشرة جلس السلطان على الد بالحوش وحضر الأمراء، فاستحثهم السلطان على

يخرجوا كلهم فى ذلك اليوم فقال الأمير طُقطبائى حاجب الحجاب: أنا عزمت على السفر إلى البحيرة. وكان السلطان جعله متحدثًا فى كشوفية البحيرة، فقالوا الأمراء: الخروج إلى قتال ابن عثمان أوجب من البحيرة وأنت ما خرجت صحبة السلطان الغورى لما سافر ولا نُهب لك برك ولا قماش. فتعلّل أنه ضعيف، فحصل بينه وبين الأمراء فى ذلك اليوم تشاجر عظيم بحضرة السلطان، وقصد الممالك الجلبان أن ينزلوا ينهبوا بيته ويحرقوه، وقيل إن بعض الممالك لكمه، وقاسى من البهدة مالاخير فيه، فتقرر الحال على أنه يخرج إلى التجريدة صحبة الأمراء، ومنع السلطان الممالك من نهب بيته. - وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض قاطبة.

وفى يوم الأحد ثالث عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر الذى كان مسافرا فى التجريدة، فكتبهم إلى السفر ثانيا ولم يترك منهم إلا القليل، فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق وكتب غالب من فيها من الممالك. ثم فى ذلك اليوم عرض السلطان عجلات من خشب تجرّها أبقار وفيها رماة بالبندق الرصاص، فكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك، وعرض جمالا وفوقها مكاحل ورجال يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال، وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنشاب، فقوى قلب العسكر فى ذلك اليوم على القتال. وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه إلى قتال ابن عثمان، واستحث بقية الأمراء على الخروج بسرعة، ولم ينفق على الأمراء شيئا، وقال لهم: اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم

وأزواجكم فإن بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار وأنا واحد منكم إن خرجتوا خرجت معكم وإن قعدتوا قعدت معكم وما عندى نفقة لكم.

وفى يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان بالحوش وعرض من العسكر أربع طباق . . وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان تغير خاطره على الزينى بركات بن موسى، وأعادته إلى الترسيم بعدما كان ترشح أمره إلى إعادته إلى وظائفه، وكان سبب ذلك أن السلطان لما حصل لابن موسى ما تقدم ذكره قرر عليه مالا فلم يرد منه إلا اليسير وادعى العجز، فلما جاء على السلطان أمر نفقة العسكر وخروجهم بسرعة ضيق على أصحاب المصادرات، منهم: ابن موسى ومحمد المهتار وجمال الدين بواب الدهيشة، وآخرون ممن عليهم بواقي الأموال المنكسرة ليستعين بذلك على نفقة العسكر، ومن حين قرر يوسف البدرى فى وظائف ابن موسى تلاشى أمر ابن موسى وآل أمره إلى العكس والزوال.

وفى يوم الخميس سابع عشره خرج الأمير الماس والى القاهرة وبرز إلى السفر فى ذلك اليوم - وفيه قبض على شخص أعجمى كان يصنع السنبوسك فى قناطر السباع، فوجدوه قد عمد إلى كلب أسود سمين فذبحه وسلخه وصنع منه السنبوسك، فلما قبضوا عليه أحضروه بين يدى الأمير مامائى المحتسب، فضرب العجمى بالمقارع وأشهره فى القاهرة والكلب معلق فى رقبتة بحبل، فطافوا به هو ورفيقه فى المدينة

ثم سجنوهما فى المقشرة، ولم تزل الأعجام يقع منهم هذه الأفعال الشنيعة من قبل ذلك.

وفى يوم الاثنين حادى عشره وقع فيه من الحوادث أن بعض المماليك السلطانية خرجوا يسيرون إلى نحو المطرية، فرأوا جماعة مقبلين من نحو بركة الحجاج، فلما قربوا منهم فإذا هم من جماعة ابن عثمان، فقالوا لهم: مَنْ إئتوا. فقالوا نحن قُصَّاد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان، وكانوا نحو خمسة عشر إنسانا، وفيهم القاصد الكبير وهو رجل شيخ بلحية بيضاء وعليه ثياب مخمل، ورأوا صحبتهم شخصا من مصر يقال له عبد البر بن محاسن كان كاتب الخزانة عند الأتابكى سودون العجمى، فلما قُتل وملك ابن عثمان حلب والشام تحشَّر فيه بواسطة يونس العادلى والسمرقندى، فلما أرسل ابن عثمان هذا القاصد ما جسروا يجُؤا من على غزّة، فإن نائب الشام جان بردى الغزالى كان بالقرب من غزّة يحاصر جماعة ابن عثمان الذين بغزّة، فبرطل القاصد بعض العربان بمال له صورة حتى أتوا بهم من طريق غير الدرب السلطانى، وطلع بهم من على التيه وأتوا بهم إلى عجرود، فما شعروا بهم أهل مصر إلا وهم فى وسط المدينة، فلما صدقوهم هؤلاء المماليك قبضوا على القاصد وعلى جماعته وعلى ابن محاسن ووجدوا معهم ثلاثة من العربان فقبضوا على الجميع. فبينما هم على ذلك قرأوا ثلاثة أنفار من الأروام الذين فى خان الخليلى قد أتوا إليهم وسلّموا عليهم وباسوا أيديهم، فقبضوا عليهم هؤلاء المماليك، وقالوا لهم: من أين علمتوا أن هذا

القاصد يجى اليوم حتى أتيتوا إليه ما إنتوا إلا جواسيس من عند ابن عثمان. فقبضوا عليهم بعد ما أشبعوهم ضربا أتاوا بالكل إلى بيت الأمير علان الدوادار الكبير. فلما دخل القاصد إلى بيت الأمير علان، قالوا له: انزل عن فرسك وسلم على الأمير الدوادار. فلم يوافق على ذلك وأغلظ عليهم فى القول، ثم سل سيفه وهاش على من حوله من جماعة الدوادار، فلما رأى الدوادار ذلك رسم للمماليك أن ينزلوه من على فرسه غصبا، فأنزلوه وأخذوا سيفه منه، ثم بهدلوه ومن معه من العثمانية وضربوهم وصكّوهم وعروهم من أثوابهم، ووضعوهم فى الحديد بعد ما قد قاسوا غاية البهدة من جماعة الدوادار، فلما بلغ السلطان ذلك رسم للأمير ومغلباى دوادار سكين، الذى كان السلطان الغورى أرسله إلى ابن عثمان وحصل منه فى حقّه غاية البهدة، فقال له السلطان: انزل وبهدل قاصد ابن عثمان كما بهدلوك. فأخذ خشداشينه وتوجه بهم إلى بيت الأمير علان على أنهم يوقعون فى جماعة ابن عثمان فعلا من أنواع البهدة أو يقتلونهم فما مكّنه الأمير علان من ذلك.

ثم قبضوا على عبدالبرّ ابن محاسن الذى حضر صحبتهم، فلما مثل بين يدى السلطان شرع يطنب فى أوصاف ابن عثمان وفى تزايد عظمتة، فمن جملة ما حكى عنه أنه لما دخل إلى حلب قطع فى يوم واحد ثمانمائة رأس من جماعة أهل مصر، من جملتهم خليفة سيّدى أحمد البدوى وآخرون من الأعيان ممن تخلّفوا بحلب، وأخبر أن عسكر ابن عثمان فوق ستين ألف مقاتل، وأنه خطب باسمه من بغداد إلى الشام على

المنابر، وأن معاملته فى الذهب والفضة ماشية من بغداد إلى الشام، وأنه لما دخل إلى الشام وملكها شرع فى عمارة سور وأبراج من القابون إلى آخر مدينة دمشق، وجعل فى ذلك السور أبوابا تغلق على المدينة وهو فى همّة زائدة ويقول: ما أرجع حتى أملك مصر وأقتل جميع من بها من المماليك الجراكسة. وأخبر أن ابن عثمان ينحجب عن عسكره أياما لا يظهر فيها، ففى هذه المدة يفتك عسكره فى المدينة ويتجاهرون بأنواع المعاصى والفسوق، وأنهم لا يصومون فى شهر رمضان ويشربون فيه الخمر والبوزة، ويستعملون فيه الحشيش والشخيب، ويفعلون الفاحشة بالصبيان المرء فى شهر رمضان، وأن ابن عثمان لا يصلى صلاة الجمعة إلا قليلا.

وقد أشيع عن ابن عثمان هذه الأخبار الشنيعة من غير ابن محاسن، ممن يشاهد هذا من أفعال عسكره بحلب والشام، فلما أطنب ابن محاسن فى أخبار ابن عثمان حنق منه السلطان وقاله له: أنت جاسوس من عند ابن عثمان أتيت لتكشف عن أخبارنا وتطالعه بذلك. فرسم بسجنه فى البرج الذى بالقلعة فسجن به، وأقام أياما حتى طلع الأتابكى سودون الدوادارى وشفع فيه حتى أطلقه من البرج، وقد قطع قلوب العسكر بما خكاه عن ابن عثمان. ثم إن السلطان رسم بشنق اثنين من العربان الذين أتوا بالقاصد من هذه الطريق التى كانت مخفية عنهم. وأشيع أن حضر صحبة القاصد من جماعة ابن عثمان نحو أربعين نفرا فاختلفوا فى القاهرة، فلما

















فمنعوه الأمراء من التوجه إلى الصالحية وقالوا: ما يقع بيننا وبينه قتال إلا فى الريدانية.

ثم إن التجار صارت تنقل أمتعتها وأموالها من بعض الدكاكين التى فى الأسواق ويدخلون بها فى الأماكن المنسية حتى يسلم، وما سلم فيما بعد.. وفيه تحول غالب الناس من أطراف المدينة ودخلوا إلى القاهرة وسكنوا بها، ونقل أعيان الناس قماشهم إلى الترب وإلى المدارس والزوايا والمزارات وإلى بيوت العوام التى فى الأرباع لعله يسلم، فماسلم فيما بعد، وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخل إلى بلبيس نادى لأهل بلبيس بالأمان والاطمان، وأن أحدا من العثمانية لا يشوش على أحد من أهل بلبيس ولا ما حولها من الضياع، فدعوا له أهل بلبيس والفلاحين قاطبة. ثم أشيع أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى العكرشة، فلما تحقق السلطان ذلك أراد أن يخرج بالعسكر ويلاقبهم من هناك فلم تمكنه الأمراء من ذلك، ولو لا قاهم من هناك لكان عين الصواب، فإن خيولهم كانت قد بطلت من الجوع، وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على أقدامهم من حين خرج من الشام، وهم فى غاية التعب، فكان ربما يكسرهم قبل أن يدخلوا إلى الخانكة ويجددوا العليق والمأكّل والمشرب والراحة من التعب، فلم يتفق للسلطان أن يلاقيهم من هناك حتى تمكنوا من الدخول إلى الخانكاه. ثم إن السلطان رسم للعسكر بأن يبات تلك الليلة قدام الوطاق وهم على ظهور خيولهم لابسون آلة الحرب، ولا ينامون لا بالنوبة خوفا من هجمة تحت الليل من العثمانية، وقد اشتد الرعب فى قلوب الأتراك من عسكر ابن عثمان.



ثم إن السلطان أرسل مع دوا دار الوالى رأسين مقطوعة، فزعموا أن أحدهما رأس إبراهيم السمرقندى، والأخرى رأس أمير ابن عثمان، فعلقوهما على دكان عند باب زويلة. وقد تحيل بعض العربان على إبراهيم السمرقندى وأضافه ويات عنده، وكان السمرقندى أتى صحبة ابن عثمان، فلما بات عند ذلك الفلاح حز رأسه تحت الليل، فلما طلع النهار أحضرها بين يدى السلطان طومان باى، وقال له: الذى يأتيك برأس إبراهيم السمرقندى إيش تعطيه؟ فقال له السلطان: أعطيه ألف دينار. فأخرج رأس السمرقندى له من تحت برئسه وقاله له: هذه رأس إبراهيم السمرقندى. فلما تحقق السلطان ذلك دفع لذلك البدوى ألف دينار. وكان إبراهيم السمرقندى أصله من أهل المدينة الشريفة، وطاف البلاد من أراضى العجم إلى بلاد الروم، وكان يعرف باللغة التركية، فلما دخل إلى مصر تحشر فى السلطان الغورى وصار من جملة أخصائه، فلما جرى للغورى ما جرى وانكسر التف على سليم شاه بن عثمان وصار من أخصائه، وقيل هو الذى حسن عبارة لابن عثمان بأن يدخل إلى مصر ويملكها ويقطع جادة الجراكسة من مصر، وأطمعه فى ذلك حتى دخل إلى مصر وكان السمرقندى من الظلمة الكبار، ولو عاش السمرقندى إلى أن ملك ابن عثمان مصر ما كان يحصل لأهلها منه خير قط، وكان يرافع أعيان مصر أشد المرافعة، فأراح الله تعالى منه الناس قاطبة وكفوا شره.

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرين ذى الحجة وردت الأخبار بأن جاليش عسكر ابن عثمان قد نزل ببركة الحاج، فاضطربت



الوطاق بالمكاحل والمدافع، وصف هناك الطوارق، وصنع عيلها تساتير من الخشب، وحفر خندقاً من الجبل الأحمر إلى غيطان المطرية، وقد تقدم القول على ذلك. ثم إن السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف جمل وعليها زكايب فيها عليق، وعلى أقتابها صنّاجق كبار بيض وحمرة يخفقون في الهواء، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل، وظن أن القتال يطول بينه وبين ابن عثمان، وأن الحصار يقيم مدة طويلة، فجاء الأمر بخلاف ذلك. فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج أقام بها يومين، فلم يجر السلطان طومان باي أن يتوجه إليهم، ولو توجه إليهم وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب.

فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر، فلما بلغ السلطان طومان باي ذلك زعق النفير في الوطاق ونادى السلطان للعسكر بالخروج إلى قتال عسكر ابن عثمان، فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربياً، وركب العسكر قاطبة حتى سد الفضاء، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم، فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية، فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق، فقتل من العثمانية ما لا يحصى عددهم، وقتل سنان باشاه للاء ابن عثمان وكان أكبر وزرائه، وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان إلى تربة الأمير يشبك الدوادار. وقتل في هذه المعركة ابن بن سوار، قتل في الريدانية ودفن على جده



ذلك شيء، ونهبوا البارود الذى كان هناك، ولم يبقوا بالوطاق شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً، فكان ذلك مما جرت به الأقدار والحكم لله الواحد القهار.

ثم إن جملة من العثمانية لما هرب للسلطان ونهبوا الوطاق، دخلوا إلى القاهرة وقد ملكوها بالسيف عنوة، فتوجهوا جماعة من العثمانية إلى المقشرة وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحابيس، وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية فأطلقوهم أجمعين، وأطلقوا من كان فى سجن الديلم والرحبة والقاعة أجمعين. ثم توجهوا إلى بيت الأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين فنهبوا ما فيه، وكذلك بيت يونس الترجمان، وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان المباشرين ومسائير الناس، وصارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت فى حجة العثمانية، فانطلق فى أهل مصر جمرة نار. ثم دخلوا جماعة من العثمانية إلى الطواحين وأخذوا ما فيها من البغال والأكاديش، وأخذوا عدة جمال من جمال السقايين. صارت العثمانية تنهب ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك، وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود، واستمر النهب عمالاً فى ذلك اليوم إلى بعد المغرب، ثم توجهوا إلى شون القمح التى بمصر وبولاق/فنهبوا ما فيها من الغلال. وهذه الحادثة التى قد وقعت لم تمر لأحد من الناس على بال، وكان ذلك مما سبقت به الأقدار فى الأزل، وقال الشيخ بدرالدين الزيتونى فى هذه الواقعة.

نبكى على مصر وسكانها      قد خربت أركانها العامره  
وأصبحت بالذل مقهورة      من بعد ما كانت هى القاهرة

وفى يوم الجمعة سلخ سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة،  
فيه دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله إلى القاهرة،  
فدخل وصحبته وزراء ابن عثمان ومن عساكره الجم الغفير،  
ودخل ملك الأمراء خاير بك نائب حلب، ودخل قاضى القضاة  
الشافعى كمال الدين الطويل، القاضى المالكى محيى الدين  
الدميرى، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى، وهؤلاء  
كانوا فى أسر ابن عثمان من حين مات السلطان الغورى.  
ودخل يونس العادلى، وخشقدم الذى كان شاد الشون بمصر  
وهرب من الغورى إلى بلاد ابن عثمان وكان سببا لهذه الفتنة  
العظيمة.

فلما دخل الخليفة دخل من باب النصر وشق من القاهرة  
وقدامه المشاعلية تنادى للناس بالأمان والاطمان والبيع  
والشرى والأخذ والعطاء، وأن لا أحدا يشوش على أحد من  
الرعية، وقد غلق باب الظلم وفتح باب العدل، وأن كل من كان  
عنده مملوك جركسى من ممالك السلطان ولا يغمز عليه شئ  
على باب داره، والدعاء للسلطان الملك المظفر سليم شاه  
بالنصر، فضج له الناس بالدعاء من العوام. فلم تسمع  
العثمانية من هذه المناداة، وصاروا ينهبون بيوت الناس حتى  
بيوت الأرباع فى حجة أنهم يفتشون على الممالك الجراكسة،  
فاستمر النهب والهجم عمالا فى البيوت ثلاثة أيام متوالية، وهم  
ينهبون القماش والخيول والبغال من بيوت الأمراء والعسكر،  
فما أبقوا فى ذلك ممكن.



وجرسه فى وطاقه وقصد يشهره فى القاهرة، فمات وهو على ظهر الحمار، وقيل حزوا رأسه بعد الموت وعلقوها فى الوطاق. ثم غُمز على الأمير كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين الذى كان والى القاهرة، فوجدوه مختفيا فى مكان فحزوا رأسه وعلقوها فى الوطاق. وصاروا العثمانية يكبسون الترب ويقبضون على الممالك الجراكسة منها، وكل تربة وجد فيها مملوك جركسى حزوا رأسه ورأس من بالتربة من الحجازيين وغيرها ويعلقون رعوسهم فى الوطاق، فضرب فى يوم واحد ثلاثمائة وعشرين رأسا من سكان الصحراء، قيل كان فيهم جماعة من الينابذة وهم أشراف، فراحوا ظلما لا ذنب لهم. وصاروا يكبسون الحارات ويقبضون الممالك الجراكسة من استطبيلاتهم ويقبضونهم باليد ويتوجهون بهم إلى الوطاق بالريدانية فيضربون أعناقهم هناك، فلما كثرت رعوس القتلى هناك نصبوا صواري وعليها حبال وعلقوا عليها رعوس من قتل من الممالك الجراكسة وغيرها، حتى قيل قتل فى هذه الوقعة بالريدانية فوق أربعة آلاف إنسان، ما بين ممالك جراكسة غلمان، ومن عربان الشرقية والغربية، وصارت الجثث مرمية من سبيل علان إلى تربة الأشراف قايتباى، فجافت منهم الأرض وصار لا تعرف جثة الأمير المقدم ألف من جثة المملوك وهم أبدان بلا رعوس . - وأما من قُتل من عسكر ابن عثمان فى هذه الوقعة فلا يحصى عددهم.

ثم إن ابن عثمان أرسل خلف المقر الناصرى محمد بن السلطان الغورى، فلما حضر ألبسه قبطان مخمل مذهباً،



وركاب حتى ضاقت بهم الشوارع، واستمر شافقا من المدينة حتى دخل من باب زويلة، ثم عرج من تحت الريح وتوجه من هناك إلى بولاق ونزل بالوطاق الذي نصبه تحت الرصيف، فلما شق من المدينة ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة. وقيل إن صفته ذرى اللون، حليق الذقن، واف الأنف، واسع العينين، قصير القامة، فى ظهره حنية، وعلى رأسه عمامة صغيرة، يلبس قفطانا مخملا، وعنده خفة ورهج، كثير التلفت إذا ركب الفرس. وقيل إن له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك، وليس له نظام يعف مثل نظام الملوك السالفة؛ غير أنه سيىء الخلق سفاك للدماء، شديد الغضب، لا يراجع فى القول. ولما شق من القاهرة كان قدامه الخليفة وقضاة القضاة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر . فكان ينادى كل يوم فى القاهرة بالأمان والاطمان، النهب والقتل عمال من جماعته لا يسمعون له، وحصل منه للناس الضرر الشامل. ومما أشيع عنه أنه قال فى بعض مجالسه بين أخصائه وهو بالشام: إذا دخلت إلى مصر أحرق بيوتها قاطبة وألعب فى أهلها بالسيف. فقليل تلتف به الخليفة حتى رجع عن ذلك، ولو فعل ذلك ما كان يجد له من مانع يمنعه من ذلك، والله غالب على أمره.

فلما طفشت العثمانية فى القاهرة صارت أعيان المباشرين يجعلون على أبوابهم جماعة من العثمانية يحفظونها من النهب، وصارت العثمانية يمسون أولاد الناس من الطرقات ويقولون لهم: أنتم جراكسة، فيشهدون عندهم الناس





ثم إن السلطان طومان باي نزل في جامع شيخو الذي بالصليبية، وصار يركب بنفسه ويكرّ من الصليبية إلى قناطر السباع في نفر قليل من العسكر، ثم رسم بحفر خندق في رأس الصليبية، وآخر عند قناطر السباع، وآخر عند رأس الرملية، وآخر عند جامع ابن طولون، وآخر عند حدة البقر، ثم إن السلطان رسم بحرق خان الخليلى فمنعه بعض الأمراء من ذلك. وأشيع أن السلطان قسم العسكر أربع فرق إلى جهة قناطر السباع، وفرقة إلى جهة الرملية، وفرقة إلى جهة جامع ابن طولون، وفرقة إلى جهة باب زويلة. فلم يقاتل من المماليك السلطانية إلا القليل، وصاوا يختفون في الاسطبلات خوفا من القتال، وقد دخل الرعب في قلوبهم من العثمانية ما بقى يخرج منها.

ثم إن طائفة من العثمانية توجّهوا من على مصر العتيقة، وطلعوا من على القرافة الكبيرة، وملكوا من باب القرافة إلى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها، فدخلوا إلى ضريحها وداسوا على قبرها، وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذي كان عندها، وبُسط الزواية، وقتلوا في مقامها جماعة من المماليك الجراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا احتموا بها. ثم إن السلطان قصد يهدم قناطر السباع، فأخرق من عقدها بعض شيء. ثم إن الأتراك شحنتوا جماعة من العثمانية فهربوا وطلعوا لى مواذن الجامع المؤيدى، وصاروا يرمون على الناس بالبندق الرصاص ويمنعونهم من الدخول إلى باب زويلة، واستمروا على ذلك حتى طلعوا لهم الأتراك وقتلهم في المئذنة أشر قتلة.











الأخبار ترادفت بأن السلطان طومان باي ظهر أنه بالصعيد عند أولاد ابن عمر، ومنع المراكب من الوصول إلى مصر بالغالل، فبموجب ذلك وقعت هذه التشحيطة بمصر.

ولما طلع ابن عثمان إلى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد، ولا جلس على التكة بالحوش السلطاني جلوسا عاما وحكم بين الناس وينصف الظالم من المظلوم، بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة، من قتل وأخذ أموال الناس بغير حق، وكان هذا على غير القياس، فإنه كان يشاع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم في بلادهم قبل أن يدخل سليم شاه إلى مصر، فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة ولا مشى سليم شاه في مصر على قواعد السلاطين السالفة بمصر، ولم يكن له نظام يُعرف لا هو ولا وزرائه ولا أمراؤه ولا عسكريه، بل كانوا همجا لا يُعرف الغلام من الأستاذ. ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الخيول من الحوش إلى باب القلعة إلى عند الإيوان الكبير وباب الجامع الذي بالقلعة، وصار زبل الخيل هناك بالكيमान على الأرض، وأخرب غالب الأماكن التي بالقلعة وفك رخامها ونزل في مراكب يتوجهون به إلى إسطنبول. - ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكريه بالرملة من باب القرافة إلى سوق الخيل. - ثم إن العثمانية نصبوا خيمة في وسط الرملة وجعلوا فيها أدنان بوزة، وخيمة أخرى فيها جفن حشيش، وخيمة أخرى فيها صبيان مرد يحarfون كعادتهم في بلادهم.

وفى يوم الجمعة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن السلطان طومان باى قويت شوكته والتفّ عليه جماعة كثيرة من العربان، واجتمع عنده من الأمراء والعسكر الجَمّ الغفير، وأشيع أن وصل إليه من ثغر الإسكندرية زردخاناه ما بين نشاب وقسى وبارود. فلما تحقّق السلطان سليم شاه ذلك أخذ حذره من الأشرف طومان باى، وصار على رءوس أهل مصر طيرة مما جرى عليهم فى تلك الوقعة التى كانت فى الصليبية، فخشوا من مثل ذلك.

وفى هذه الأيام تزايد الأذى من عسكر ابن عثمان، فكانوا يخرجون وقت صلاة الصبح ويتوجّهون (إلى) الضياع التى حول الخانكاه، فيحشّون ما فيها من الزروع من البرسيم والفلول، فيطعمونه إلى خيولهم فى كل يوم، ثم صاروا يأخذون دجاج الفلاحين وأغنامهم وأوزهم، حتى أبوابهم وخشب السقوف الذى هناك، حتى أخربوا غالب ضياع الشرقية وسواحل البحر، فلما يرجعون أواخر النهار يباتون فى الوطاق الذى فى الرملة، ثم صاروا يخطفون العمائم ويعرّون الناس فى الأماكن المفردة من بعد العشاء، فرسم السلطان سليم شاه بعمل دروب فى كل حارة، وسدّوا عدّة طرق من الحارات. وكذلك عدة أبواب جعلوها خوخ، وكان المتولّى عمل ذلك يحيى بن نُكار دوادار الوالى، فبلص الناس فى هذه الحركة وأخذ منهم جملة مال، ولم يُفد من عمل هذه الدروب شىء، وحصل للناس الضرر الشامل وجبوا الأموال من الحارات بسبب تلك الدروب. - ولما أقام ابن عثمان بالقلعة نزل منها ودخل حمام

خشقدم الزمام التى بالرملة، فأقام بها إلى بعد العصر، ثم عاد إلى القلعة.

وفى يوم الأربعاء رابع صفر وردت الأخبار بأن الأمير ألماس كاشف الغربية طوق أطراف جهات الجيزة على حين غفلة، وأخذ منها عدة خيول كانت هناك، وبعض جمال كانت هناك لخير بك نائب حلب، ثم أشيع أن ألماس قتل جماعة من العثمانية، فلما بلغ السلطان سليم شاه ذلك أرسل تجريدة إلى جهة الجيزة وعين بها ألفى عثمانى ورماة بالبندق الرصاص، فلما عدوا إلى بر الجيزة لم يجسروا أن يتبعوا ألماس وقانصوه العادلى، ثم إن ابن عثمان نادى فى القاهرة بأن أبواب المدينة وأبواب الدروب تغلق وقت صلاة الجمعة، خوفا من الممالك الجراكسة أن لا يطوقوا المدينة على حين غفلة من أهلها.

ثم إن السلطان سليم شاه قبض على جماعة من الممالك الجراكسة الذين كانوا ظهروا بالأمان، وكانوا فى الترسيم فى الوكالة التى خلف مدرسة الغورى، وكان منهم جماعة فى سجن الديلم، وكان فيهم أمراء عشرات، فرسم بأن يُنفوا إلى إسطنبول، فأخرجوهم وهم فى قيود وأركبوهم على حمير، والأعيان منهم على جمال، ومنهم من هو ماش على أقدامه وهو فى زنجير، وكانوا نحو سبعمئة مملوك، وقيل أكثر من ذلك، فشقوا بهم القاهرة ثم توجهوا بهم إلى بهم إلى بولاق وأنزلوهم فى المراكب فلما استقروا فى المراكب خشبوا منهم جماعة بقرامى خشب فى أيديهم، ثم سافروا بهم فى البحر إلى ثغر

الإسكندرية، ثم يتوجهون بهم من هناك إلى إسطنبول، فصار  
لنسائهم وأولادهم ضجيج وبكاء فى ساحل بولاق عندما  
ودّعوهم.

وفى يوم الأربعاء حادى عشر صفر أخلع السلطان سليم  
شاه على القضاة الأربعة الذين كانوا فى أسره بحلب، وهم  
قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة  
محمود بن الشحنة الحنفى وقاضى القضاة محبى الدين بن  
الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى  
الحنبلى، وأعادهم إلى وظائفهم كما كانوا فى الأول بمصر.  
وكانت الأحوال قد فسدت جدا فإن السلطان سليم شاه لما  
دخل إلى القاهرة جعل فى المدرسة الصالحية قاضيا من قبله  
سمّاه قاضى العرب، فصار لا يحكم إلا فى المدرسة  
الصالحية، فمنع نواب قضاة مصر والشهود الذين ها قاطبة  
أن لا يعقدوا عقدا لأحد من الناس ولا يكتبوا إجازة ولا وكالة  
ولا وصية ولا شيئا من الأشغال قاطبة، فكانت الناس إذا راموا  
أن يعقدوا عقدا لتزوّج من أبكار أو ثيبات فيمضون إلى  
المدرسة الصالحية ويحصل لهم كلفة زائدة ومشقة، وكذلك فى  
الوصية أو فى جميع أشغال الناس، فضاعت على الناس  
حقوقها واضطربت أحوال الأحكام الشرعية فى هذه الأيام.  
وكان القاضى الذى قرره ابن عثمان يحكم فى الصالحية أجهل  
من حمار، وليس يدرى شيئا فى الأحكام الشرعية، ويضيع  
على الناس حقوقها، وكان إذا دخل عليه مبلغ فى كل يوم  
يعطى الموقعين والشهود الذين عنده من ذلك المبلغ بعض شىء

ويقول الباقي حصّة بيت المال، فيشيل بقية المبلغ فى صندوق ويقتل عليه، واستمرّت القضاة والشهود مع قاضى العرب الذى قرره ابن عثمان فى غاية النكد، ومنع القضاة والشهود من الحكم والشهادة، وأقاموا على ذلك نحو شهر وقد منعوا من ذلك، وفى هذه الواقعة يقول الشيخ بدر الدين بن الزيتونى فى معنى ذلك :

منعنا الحكم والإشهاد أيضا	فيا سنة الكرى عينى فزورى
مُنَعْنَا كُلْنَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ	كأنا قد أتيناهم بزور

وفى هذا الشهر أشيع أن السلطان طومان باى أرسل عدة مطالعات إلى المباشرين وأعيان الناس وإلى كاتب السرّ حتى إلى الخليفة، فأرسل يعتب عليهم ويقول لهم: يا سبحان الله إن كنتم نسيتمونا فنحن ما نسيناكم. وأرسل يعتب عليهم ويتحرّش بهم، ثم بعد أيام أشيع أن طومان باى أرسل يقول إلى ابن عثمان: إن كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة باسمك وأكون أنا نائبا عنك بمصر وأحمل لك خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا من المال الذى أحمله إليك فى كل سنة، فارحل عن مصر أنت وعسكرك إلى الصالحية وصون دماء المسلمين بيننا ولا تدخل فى خطية أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ وصبيان ونساء، وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولاقيني فى برّ الجيزة ويعطى الله تعالى النصر لمن يشاء منا. فلما وقف السلطان سليم شاه على مطالعة السلطان طومان باى أرسل خلف أمير المؤمنين والقضاة الأربعة، وأحضر

جماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة حلف إلى السلطان طومان باى، وكتب ابن عثمان خطّه عليه، ووقع فى ذلك اليوم الاتفاق بالقلعة أن الخليفة والقضاة الأربعة يتوجهون إلى السلطان طومان باى بذلك الحلف على أيديهم، ثم إن ابن عثمان أخلع على القضاة الأربعة قفطانات مخمل مذهبها وقال لهم: انزلوا اعملوا يرقمكم حتى تتوجهوا إلى طومان باى نحو الصعيد. فنزلوا من القلعة على ذلك، ثم إن الخليفة امتنع من التوجه إلى السلطان طومان باى، وقال: أنا أرسل دوادارى برد بك صحيفة القضاة الأربعة. وأشيع أن المطالعة التى أرسلها السلطان طومان باى إلى ابن عثمان ذكر فى ذيل المطالعة: ولا تحسب أنى أرسلت أسألك فى أمر الصلح عن عجز، فإن معى ثلاثين أميرا ما بين مقدّمين ألوف وأربعينات وعشرات، ومعى من الممالك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفا، وما أنا بعاجز عن قتالك، ولكن الصلح أصلح إلى صون دماء المسلمين. ثم فى عقيب ذلك توجهت القضاة الأربعة وبرد بك دوادار الخليفة إلى عند السلطان طومان باى نحو الصعيد.

وفى هذه الأيام قويت الإشاعات بأن السلطان طومان باى جمع من العساكر والعربان ما لا يحصى عددهم وهو زاحف على ابن عثمان ببرّ الجيزة، فكثّر القيل والقال فى ذلك ووقع الاضطراب فى القاهرة بسبب ذلك.

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر تزايد فساد العربان بالشرقية، وصاروا يقطعون الطريق على العثمانية ويقتلونهم

ويأخذون خيولهم وجمالهم وسلاحهم. ونهبوا بلاد عبدالدايم بن أبي الشوارب وأحرقوها، ونهبوا عدة بلاد من الشرقية، منهم قليب وقلقشندة وغير ذلك من البلاد، ووصلوا إلى شبرا المنية، وصاروا يعدّون من شبرا إلى قنطرة الحاجب. فلما تزايد الأمر أرسل إليهم السلطان سليم شاه تجريدة فيها من العسكر نحو ألف وخمسمائة عثماني، وجعل باشهم جان بردى الغزالي، فخرجوا من القاهرة على حمية وتوجّهوا إلى الشرقية فأقاموا بها أياما، فأخلت العربان من وجههم وصعدوا إلى الجبال فرجع ذلك العسكر من غير طائل من العربان.

وفى أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من بلاد الصعيد بأن القضاة الأربعة وبُرد بك دوادار الخليفة وقاصد ابن عثمان مُصلح الدين الذي كان أرسله معهم وجماعة من العثمانية، فلما وصلوا إلى قريب البهنسا خرج عليهم جماعة من العربان ومعهم جماعة من الأتراك فقتلوا العثمانية، وهرب برد بك دوادار الخليفة وعروّه وأخذوا أثوابه وهرب حتى نجا من القتل، ونُهب جميع ما معه من القماش وغيره، وأشيع قتل قاضي البهنسا عبدالسلام، ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك، وما سلموا من القتل إلا بعد جهد كبير. فلما بلغ ابن عثمان ذلك اضطربت أحواله وتحقق أن السلطان طومان باي قد أبقى من الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان. ثم إن ابن عثمان نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى إلى بركة الحبش.

وفى يوم السبت حادى عشرين صفر نزل السلطان سليم شاه من القلعة ومعه الجَمّ الغفير من العساكر وتوجّه إلى الوطاق ببركة الحبش، وتوجّهت المباشرون صحبته حتى القاضى كاتب السرّ. - وفى هذه الأيام اختفت السقايين بجمالهم وضجّ الناس من العطش، وزعموا أن ابن عثمان طلب جميع السقايين بجمالهم ورواياهم حتى يسافروا معه إلى الصعيد بسبب السلطان طومان باى إن كان يهرب منه إلى بلاد الزنج، فوصل ثمن الراوية الماء أربعة أنصاف، وقيل خمسة أنصاف.

وفى يوم السبت ثامن عشرين صفر أشيع أن أوائل عساكر السلطان طومان باى قد وصل إلى ترسة بالقرب من الجيزة، فرسم ابن عثمان بعمل وحسات على شاطئ البحر بطراً لأجل تعدية عسكره، وكذلك فى بر مصر العتيقة. - وفى هذه الأيام امتنع الجالب من البضائع التى كانت تدخل إلى القاهرة من الأجبان والسمن والقشطة وغير ذلك من البضائع، التى كانت تجلب من الجيزة وقلوب والمنية وشبرا، واضطربت أحوال القاهرة جداً بسبب إقامة هذه الفتنة.

وفى ربيع الأول كان مستهلّ الشهر يوم الثلاثاء، فأشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج إلى بلاد الشرقية كبس على عدة بلاد من الشرقية حتى وصل إلى التل والزمرّونين وإلى زنكلون، فنهب ما فيها من الأبقار والأغنام والأوز والدجاج، وأسر نساء الفلاحين وأولادهم الصبيان والبنات، وصار

يبيعهم فى القاهرة بأبخس الأثمان، كما فعل أقبردى الدوادار  
بالعرب الأحامدة وأولادهم، فاشترى بعض الناس منهم بنتا  
بأربعة أشرفية وأعتقها وأوهبها إلى أمها وقد رُق لها من  
الأسف على ابنتها، وفعل فى الشرقية ما لا فعله البُخت نصر  
لما دخل إلى مصر. ثم إن يونس باشا نادى فى القاهرة بأن  
كل من اشترى من نهب بلاد الشرقية شيئاً من الأبقار والأغنام  
يرده على أصحابه، وكذلك أولاد الفلاحين، ولام جان بردى  
الغزالي فيما فعله فى الشرقية.

وفى يوم الأربعاء ثانى ربيع الأول رسم السلطان سليم  
شاه بأن الأمراء الذين كانوا فى القلعة فى الترسيم، بأن  
يحضروا إلى بين يديه بالوطاق الذى ببركة الحبش، فنزلوا بهم  
من القلعة وهم على بغال وشىء على حمير وشىء مشاة، وهم  
جنازير وعليهم كبورة عتق وعلى رعوسهم كوافى بغير  
شاشات.

فكان مجموع هؤلاء الأمراء المقدم ذكرهم أربعة وخمسين  
أميراً ما بين مقدمى ألوف وغير ذلك، فلما مثلوا بين يدى  
السلطان سليم شاه وبّخهم بالكلام ثم أمر بضرب أعناقهم  
أجمعين.

فضربت أعناقهم بالوطاق الذى ببركة الحبش، وذلك فى  
يوم السبت سادس ربيع الأول، وكانت هذه الكاينة من أعظم  
الكواين فى حق الأمراء، وقد ظهروا بالأمان من ابن عثمان ثم  
غدرهم وقتلهم، فكان لا يثق أحد له بأمان وليس له قول ولا فعل

وفى يوم الأحد سادس ربيع الأول عدى السلطان سليم شاه إلى بر الجيزة بسبب قتال الأشرف طومان باى، وقد بلغه أنه قد وصل إلى المناوات ومعه من العربان والعسكر من الممالك الجراكسة الجم الغفير، فلما عدى إلى الجيزة أقام بها إلى يوم الخميس عاشر شهر ربيع الأول، فتلاقى عسكر بن عثمان وعسكر السلطان طومان باى على وردان، وقيل على المناوات، فكان بين الفريقين وقعة لم يسمع بمثلا، أعظم من الوقعة التى كانت على الريدانية، وقيل كانت هذه الوقعة عند كوم الحمام، فكان بين الفريقين وقعة مهولة وانكسرت العثمانية غير ما مرة، وطردتهم الأتراك حتى ألقوا أنفسهم فى البحر، وكانت الكسرة عليهم أولا، وقتل منهم جماعة كثيرة. ثم بعد ذلك تكاثرت العثمانية على الأتراك وطرشتهم الرماة بالبندق الرصاص، فهزموهم ووقعت الكسرة على الأتراك، وولى السلطان طومان باى مهزوما، فتوجه إلى بلدة تسمى البوطة فى أعلا تروجة. وهذه خامس كسرة وقعت على عسكر مصر، وكان السلطان طومان باى ليس له سعد فى حركاته، كل ما رام أن ينتصر على ابن عثمان ينعكس، فكان كما يقال فى المعنى:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر قطع رؤوس الممالك من الجراكسة، وقطع رؤوس جماعة كثيرة من العربان ذين كانوا مع السلطان طومان باى، فلما تكاملت قطع الرؤوس رسم ابن عثمان بإحضار مراكب، فلما حضرت وضعوا فيها

الرعوس الذى قتلوا، فلما عدوا إلى بر بولاق صنعوا مدارى خشب وعلقوا تلك الرعوس وحملها النواتية على أكتافها ولاقتهم الطبول والزمور، ونادوا فى القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة، وشقوا بتلك الرعوس من باب البحر إلى باب القنطرة، وطلعوا بهم من على سوق مرجوش وشقوا بهم من القاهرة، وكان لهم يوم مشهود. وقيل كان عدة الرعوس الذى قتلوا فى هذه الوقعة ودخلوا القاهرة نحو ثمانمائة رأس ما بين أتراك وعربان وغير ذلك، والذين قتلوا هناك وألقوهم فى البحر أكثر من ذلك.

ولما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر، أقام فى بر الجيزة أياما، وسير هناك وتفرج على الأهرام وتعجب من بنائها .. ولما كثر الاضطراب بالقاهرة ضيقت الناس أبوابها الكبار وجعلوها خوفا صفارا، لا يدخل منها فرس ولا راكب . وفى يوم الأربعاء سابع عشرة نادوا فى القاهرة بإبطال الفلوس العتق، وضربوا للناس فلوسا جددا كل اثنين بدرهم ونصف، وعليهم اسم سليم شاه، فكانوا فى غاية الخفة، فتضرروا الناس منها إلى الغاية.

ومن هنا نرجع إلى أخبار السلطان طومان باى، فإنه لما تلاقى مع عسكر ابن عثمان على المناوات، وقيل بوردان، فانكسر عسكر السلطان طومان باى كما تقدم القول على ذلك، فلما انكسر توجه إلى نحو تروجة بالغربية فلاقاه حسن بن مرعى وابن أخيه شكر مشايخ البحيرة فى ضيعة تسمى

البوطة، فعزم حسن بن مرعى بينه وبين السلطان طومان باى صداقة قديمة فأركن له طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة، ثم إن السلطان طومان باى أحضر إلى حسن بن مرعى وابن أخيه شكر مصحفا شريفا وحلفهما عليه أنهما لا يخونانه ويغدرانه ولا يدلسان عليه بشيء من أسباب المسك، فحلفا له على المصحف سبعة أيمن بمعنى ذلك، فطاب حينئذ قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عنده، فلما استقر عنده احتاطت به العربان من كل جانب، وأرسل أعلم السلطان سليم شاه بذلك، فأرسل إليه جماعة من عسكره قبضوا عليه ووضعوه فى الحديد وتوجهوا به إلى ابن عثمان. فلما رأى من كان مع السلطان طومان باى من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه تفرقوا من حوله وتششتوا فى البلاد، وتمت الحيلة على السلطان طومان باى، وخانة حسن بن مرعى بعد أن حلف له على المصحف الشريف وأركن إليه، وكان حسن بن مرعى من أعز أصحاب طومان باى، وله عليه غاية الفضل والمساعدات من أيام السلطان الغورى، وأقام عنه بما عليه من المال، فلم يذكر له شيئا من ذلك ولا أثمر فيه الخير، فكان كما يقال فى المعنى:

لا تركنن إلى الخريف فماؤه      مستوخم هواؤه خطاف  
يمشى مع الأجسام مشى صديقها      ومن الصديق على الصديق يخاف

فلما أحضروا السلطان طومان باى بين يدى ابن عثمان كان عليه مثل لبس العرب الهوارة زمت وعليه شاش وملوطة بأكمام كبار، فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له ثم عتبه

ببعض كلمات، فلما خرج من قدامه توجهوا به إلى خيمة فأقام بها وأحاطوا به الأنكشارية بالسيوف لأجل الحفظ به، فأقام هناك أياما وهو بوطاق ابن عثمان ببر إنبابة، فلما وردت الأخبار إلى القاهرة بمسكه فصار طائفة من الناس تكذب بمسكه وطائفة تصدق بذلك. فأقام السلطان طومان باى فى الوطاق عند ابن عثمان وهو فى الحديد إلى يوم الاثنين ثانى عشرين ربيع الأول من تلك السنة، وكان ذلك اليوم يوم الخميس، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر، فعدوا بالسلطان طومان باى من بر إنبابة إلى بولاق، فطلعوا به من هناك هو راكب على إكديش وهو فى الحديد، عليه لبس العرب الهوارة كما تقدم. وكان السلطان طومان باى لما قبضوا وعليه أقام فى الوطاق عند ابن عثمان نحو سبعة عشر يوما، وكان أشيع أن ابن عثمان يرسل طومان باى إلى مكة ولا يقتله، ثم بدا له من بعد ذلك ما سنذكره. وفى مدة إقامة ابن عثمان فى الوطاق فكانت العثمانية يطوفون فى المدينة نهارهم كله، ومن بعد العصر يرجعون إلى الوطاق يباتون به.

فلما بلغ ابن عثمان أن الناس لا تصدق بمسك طومان باى فخنق من ذلك وعدى به، فلما طلع من بولاق شق من المقس وقدامه نحو أربعمئة عثمانى ورماة بالنفط، فطلع من على سوق مرجوش وشق من القاهرة، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدرى ما يصنع به. فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال ووقفت حوله العثمانية بالسيوف، فلما تحقق أنه يشنق

وقف على أقدامه على باب زويلة، قال للناس الذين حوله: أقرأوا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات. فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه، ثم قال للمشاعلى: اعمل شغلك. فلما وضعوا الخية فى رقبتة ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة، وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع إلى الأرض، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس ، وعلى جسده شاياء جوخ أحمر، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار، وفى رجله لباس جوخ أزرق.

فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف، فإنه كان شابا حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة، وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه، وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى، وكسرهم ثلاث مرات فى نفر قليل من عسكره، ووقع منه فى الحرب أمور ما لا تقع من الأبطال. وكان لما سافر عمه السلطان الغورى جعله نائب الغيبة عنه إلى أن يحضر من حلب، فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة، وكانت الناس عنه راضية فى مدة غيبة السلطان، وكانت القاهرة فى تلك الأيام فى غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك. فلما مات السلطان الغورى عمه وتسلمت عوضه أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى، ولم يشوش على أحد من الناس فى مدة سلطنته ولا يقبل فى أحد من الناس مرافعة ولا صادر أحدا من المباشرين فى مدة سلطنته، ولما وصل ابن عثمان إلى الشام

وقصد أن يخرج إليه فشكى أن الخزائن خالية من الأموال، فقالوا له الأمراء وجماعة من المباشرين: افعل كما فعل السلطان الغورى وخذ أجرة أملاك القاهرة سبعة أشهر، وخذ على الرزق والإقطاعات خراج سنة. فلم يسمع لهم شيئا وأبى من ذلك، وقال: ما أجمل هذا أن يكون فى صحيفتى.

وكان ملكا حلما قليل الأذى كثير الخير، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر أربعة عشر يوما، فإنه تسلطن رابع عشر شهر رمضان، وانكسر وهرب تاسع عشرين ذى الحجة. وكان فى هذه المدة فى غاية التعب والنكد وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا وهجاءا فى البلدان، وآخر الأمر شنق على باب زويلة، وأقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته، وفى اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ووضعوه فيه، وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغورى عمه، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك، ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة، ومضت أخباره كأنه لم يكن، وقد قلت من أبيات:

لهفى على سلطان مصر كيف قد	ولى وزال كأنه لن يذكر
شنقوه ظلما فوق باب زويلة	ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا
يا رب فاعف عن عظام جرمه	واجعل بجنات النعيم له قرا

وكان شنق السلطان طومان باى من نهايات سعد سليم شاه بن عثمان، ولم ينتج أمره من بعد ذلك، ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على

باب زويلة قط، ولا علقت رأس على باب زويلة قط، ولم يعهد  
بمثل هذه الواقعة فى الزمن القيم، ومن عهد شاه سوار لما  
كلبوه على باب زويلة لم يعلق عليه من له شهرة طائفة غير  
السلطان طومان باى.

---

رقم الإيداع ٧٠٩٤ / ١٩٩٦

I. S. B. N 977-01-4849-0

---





## مكتبة الأسرة



بسعر رمزي جنيده واحد  
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦



مطابع  
الهيئة المصرية العامة للكتاب